الذاتية

«فألهمها فجورها وتقواها»

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

دار النخبة

33 شارع السنترال - الحي الأول -

مدينة الشيخ زيد - الجيزة - مصر

تليفون: 00202 - 38511969

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الذاتية

«فألهمها فجورها وتقواها»

تأليف: الأستاذ الدكتور محمد أبو زيد الفقى

عدد الصفحات: 208

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 14839/ 2017

ISBN: 978- 977- 6580- 96- 1

الـــذاتيـــة

«فألهمها فجورها وتقواها»

تأليف

الأستاذ الدكتور/ محمد أبو زيد الفقي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبدالله. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين شرفوا الحياة بسلوكهم فيها. وعمروها بسعيهم فيها وضربوا لنا المثل الأعلى فيما ينبغى على المسلم أن يصل إليه فى طاعة الله تعالى عبادة وخلافة.

وبعد...

فالإنسان بحكم خلافته لله تعالى فى الأرض يقضى عمره بحثا عن أسرار الحياة فى الأرض والفضاء، ثم أحيانا يتفلسف فيبحث فى عالم الغيب، وأحيانا يستبد به الغرور والشطط فيبحث فى ذات الله تعالى، ويتصور أنه قادر على رؤية الله تعالى فى الدنيا، ويسمى هذا التصور مكاشفة وقربا.

ومع ذلك كله، فالإنسان ينسى أن يبحث فى نفسه، ويسبر غورها، ويقف على أسس مكرها وخداعها، ودراسة النفس هى البداية الصحيحة لحياة سوية هادفة.

ولقد عهد الله تعالى إلى آدم، وحذره من نفسه ومن الشيطان. ولكن آدم عليه السلام انشغل بزخارف الجنة ونعيمها، ونسى غرور النفس وشطحها، فجاء الشيطان وزين الخلود لآدم إذا عصى ربه وأكل من الشجرة.

وسقط آدم فى هذا الاختيار، وعلة سقوطه أنه نظر إلى الأشياء وانفعل بها، ولم ينظر إلى ذاته، مع أنها كانت قريبة العهد بالخلق، ولم تحمل معها أدران القرون كما تحمل ذواتنا الأن وحينما نظر آدم إلى ذاته أدرك ما وقع فيه من خطأ، لجأ إلى ربه مرة أخرى بنفس

صافية وذات طاهرة مدركة لمهمتها فى الحياة إدراكا دقيقا، فتاب الله تعالى عليه وهداه إلى الصراط المستقيم.

والقرآن الكريم هو كتاب النفس الأول، لأنه كلام الله تعالى، وهو الذى خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو يرشدنا دائما إلى أسرار الذات البشرية، إلا أن البعض منا يركزون على ما فى القرآن الكريم من علوم أخرى، ويُعرضون عن علم النفس فى القرآن الكريم، مع أن هذا الكتاب قد نزل أساسا لهداية النفس البشرية وإعادتها لإلى فطرتها الصادقة.

وعلى الصفحات التالية محاولة لدراسة الذات الإنسانية من جوانبها العملية، وهى دراسة لمجموعة من الذوات مثل الذاتية الفاعلة، والذاتية المنفعلة، والذاتية الغافلة، والذاتية المتضخمة. وهى محاولة لتفسير سلوك الإنسان، ولمعرفة اسراره وأغواره، وهى دراسة هامة لكل من يتصدى للدعوة إلى الله تعالى، حتى تكون دعوته على بصيرة، وعلم بذوات المدعوين، ولكنها تبقى محاولة وإن كنت لم أصل إلى نهاية الطريق فحسبى اننى مضيت فيه...

أ.د / محمد أبو زيد الفقي

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات

بكفر الشيخ (سابقا).

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

رئيس مجلس إدارة جمعية الإعلاميين المصرية.

الباب الأول

الذاتية الفاعلة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وآله الكرام الطيبين الطاهرين، وعلى من اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم البعث العظيم.

وبعد:

فقد كثرت مشكلات الدعوة الإسلامية والعقبات التى تشهدها فى العصر الحديث، وقد حاول الكثير من المفكرين الإسلاميين، والباحثين المخلصين أن يعثروا على حل لهذه المعضلة، فصلاحية الدعوة الإسلامية للانتشار لا ريب فيها، وصلاحيتها للقيادة الفكرية والسياسية فى سيرها، أو تنحرف فى مسارها فى وقتنا الحاضر ؟!

والاجابة على هذا السؤال الكبير هى المعالجة العلمية لقضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة، ولأنها قضايا، لا قضية واحدة، فإن المعالجة الرأسية لكل قضية على حدة، أكثر فائدة من المعالجة الأفقية لكل القضايا دفعة واحدة، لأن هذه المعالجة الأفقية وإن كانت تجمع القضايا، إلا انها تفتت الحلول، وتعمم المدلول، وتجعل النتيجة يائسة مع وجود الأمل، أو متفائلة مع تراكم العقبات.

وفى هذه المحاولة السريعة لدراسة قضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة، أبدأ بقضية واحدة هى أولى القضايا ويتأسس عليها ما بعدها، وهى قضية ذاتية الداعية، وأثرها على دعوته.

إن كثيراً من الدعاة الآن يعتبرون أنفسهم مبلغين فقط، بمعنى أنهم يبلغون دعوة الإسلام إلى الناس، ويقيسون دورهم بالكم الذى بلغوه من المعلومات، ولا يلتفتون إلى

الكيف الذى أصلحه هذا البلاغ فى مشاعرهم الخفية، وفى ذواتهم الظاهرة للناس، لأن الداعية الحقيقى يجب أن يكون وعاء لدعوته.

ولذلك لما سئلت السيدة عائشة عن أخلاق النبى ﷺ قالت «كان خلقه القرآن»، معنى هذا أنه كان وعاء للقرآن الذى هو وعاء الدعوة وسياجها، وهذا يقودنا إلى نتيجة مؤداها أن الذاتية الطاهرة للداعية أساس فى دعوته، وعليها يتوقف نجاحه فى هذه الدعوى.

ولكى يتم بحث هذا الموضوع بحثا علميا. لابد من التركيز على ذاتية الداعية وأثرها فى إيمان المدعوين، بمعزل عن العوامل الأخرى التى تساعد على الإيمان مثل العبادات والأخلاق والمعاملات فى الإسلام، وأفضل النماذج للدراسة هو ذاتية الداعية الأول المصطفى ص، وأفضل الشخصيات التى تحقق لها الإيمان القوى قبل أن تفرض العبادات هم أصحابه الذى آمنوا فى فجر الدعوة الإسلامية.

وعلى هذا فالدراسة فى هذا الموضوع تنقسم إلى فصلين:

الفصل الأول

الذاتية الطاهرة وتأثيرها

القسم الأول: ذاتية الداعية وشمائله

الداعية المقصود بالدراسة هو النبى ﷺ .

لقد أخبر أناس من مكة - سرا - أنه رسول الله تعالى، وأنه مكلف برسالة يبلغها للناس كافة، ولم يكن القرآن الكريم قد نزل منه ساعتها إلا آيات قليلة معظمها خطاب من الله تعالى للنبى ص، ولكنهم مع قلة الآيات وعدم فرض العبادات، آمنوا به إيمانا جعلهم يضحون بأرواحهم فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ونصرة دينه الذى لم يكتمل بعد.

فما الذى دفعهم لهذا الإيمان القوى الذى يفتت الجبال بقوته، ويقهر الطغاة بعزته؟ وعزته ليست فى قوة أصحابه المادية، فقد كانت معدومة، ولكنها كانت فى وضعهم وشدة تمسكهم به.

وذاتية النبى ﷺ الظاهرة فى كثير من آى الذكر الحكيم نختار منها ما يلى:

١ - قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾[1] ورة القلم من ١: ٤"

٢ - قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١٢٩﴾[2] .

(١) سورة القلم ١: ٤.

(٢) سورة التوبة ١٢٨، ١٢٩

٢ - قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.(١)

فى الآيات السابقة ملامح للشخصية الكبيرة، والذاتية الطاهرة للمصطفى ص، فالآيات الأولى تنفى عنه الجنون، وتثبت أن له أجرا كريما غير ممنون - أى عن اتحقاق، ثم تأتى شهادة الحق سبحانه وتعالي فى الآية الثالثة بأن رسول الله ﷺ على خلق عظيم، وهذه الشهادة هى أعظم وأشرف دليل على طهارة ذاتية ﷺ .

والآيات الثانية تبين الجانب العملى لهذه الذات الطاهرة، فهى شخصية فاعلة فى إبلاغ الخير للناس، منفعلة بإعراضهم عن الخير، أى أنها شخصية تفرح لهداية الناس، وتحزن على ضلالهم، وهى بالنسبة للطائفة التى سلكت طريق الهداية تظلمها بالرأفة والرحمة، وهى ملامح عظيمة لهذه الذاتية الطاهرة.

ولو اقتدى الدعاة الآن بالنبى ﷺ فى هذه الجوانب النفسية لوضعوا الأساس المتين لنجاح دعوتهم، وإن كانت ذاتية النبى ﷺ ستظل سامقة لا يصل إلى منزلتها أحد.

وفى الآية الأخيرة إيضاح لمعنى الرأفة والرحمة، فالله سبحانه وتعالى يطلب منه فى هذه الآية أن يعفو عن المؤمنين وأن يستغفر لهم فى ذات الوقت، وهذه مقابلة نفسية فى غاية الغرابة، ولكنها ليست بعيدة على الشخصية السوية الكاملة - شخصية المصطفى ﷺ .

فالإنسان يغفر لأخيه الإنسان خطأه وهذا ممكن من وجوه، أما أن يغفر له ويستغفر له فذلك هو الذى يكشف للباحث عن سر من اسرار ذات النبى ﷺ الطاهرة. وهو قياس ثابت للبعد، أو القرب من التأسى بالمصطفى ص، ويمكن لكل داعية أن يجربه داخل نفسه تجاه إنسان أخطأ فى حقه، هل يغفر له؟ وهل يستغفر له؟. الإجابة الصادقة هى التى تحدد ذاتية الداعية، ومدى نجاحه فى دعوته.

(١) سورة آل عمران ١٥٩

شمائل أخرى للذاتية الطاهرة

انفرد النبى ﷺ من بين سكان مكة بأن له شمائل ثابتة، قبل البعثة وبعدها. وقد عد القضاعى من خصائصه ﷺ أنه لا يشهد على جور[1].

ويقول الاستاذ/ محمد أحمد جاد المولى: عن النبى ﷺ . أنه كان (ذا شجاعة ونجده وبسالة وشدة، وبأس وشهامة، وحماسة وصرامة، وصولة وإقدام، يشتت شمل الكمأة ويبطل خيل الأبطال، أذهب الشك بحق اليقين، وأرهب العذاب سيفه أحلامهم ونكث أعلامهم، وزيف أقوالهم وأفعالهم، حضر الوقائع وشهد الملامح. وتولى الكمأة عنه وهو مستقر، وفر المسلمون يوم حنين من حوله وهو ثابت لا يبرح، يقبل لا يدبر ولا يتزحزح، ما لقى كتيبة إلا كان أول ضارب، ولا ثوانى القوم لحدوث صوت إلا كان أسرع واثب، لم ير أثبت منه جأشا فى الجهاد،ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجلاد، طالما، ثبت فى الشدائد وهو مطلوب، وصبر على البأسا، والضراء وهو مكروب، ونفسه فى اختلاف الأحوال ساكنه، لا يتحير فى شدة، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، وقد لقى ﷺ بمكة من قريش ما تشيب له النواصى، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى، ويثبت ثبات المستولى، تصدى لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته، وهو فى قطر مهجور، وعدد محقور، وبذلك جمع بين التصدى لشرع الدين حتى أظهره ومكافحة العدو حتى قهره)[2].

هذه الشمائل التى سجلها الكاتب منتزعة من السيرة النبوية الطاهرة. وليست نشيدا منسقا من تابع لمتبوعه كما يتوهم القارئ لأول مرة ينظر فيها إلى الكلمات، وهذه المشاكل التى تدل على الذاتية القوية للداعية الاول، هى نفسها التى جعلت الرواد الأوائل أمثال ياسر بن عامر وزوجته سمية وبلال بن رباح وغيرهم يعذبون العدو وهم يعذبون، وكانوا مع الضعف يصابرون صبر المستعلى، ويثبتون ثبات المستولى، وهذا هو السر فى بسالتهم

(١) الإمام جلال الدين السيوطى الخصائص الكبرى ﷺ ٤١٦ ط دار الكتب.

(٢) الأستاذ/ محمد أحمد جاد المولى محمد ﷺ المثل الكامل ﷺ ١٨،١٩ ط المكتبة التارية سنة ١٩٣٧

االشديدة فى مواجهة الباطل، ولم ينزل قرآن يأمرهم بهذا الفدا وقتها، غير أن اهتمام القرآن الكريم كان وقتها ينصب على التوحيد ونبذ عقيدة الشرك. ولكن الذى حدث هو أنفعال ذاتية المدعوين بذاتية الداعية.

وليس من أمل لأمة الإسلام فى يومها المخبول، وغدها المجهول، إلا أن تترك كل المثل العليا الزائفة وتعود لمثلها الأعلى الكامل الشامل صاحب الذاتية الطاهرة المصطفى ص، (إنه الهدف السامى الذى ولينا وجوهنا شطره، بدل الضعف قوة، والذل عزة، والفقر غنى،والتفرق وحدة وألفة، والجبن شجاعة، والخمول ذكاءونباهة، والكذب صدقا والاستكانة إباءً، والانحطاط رفعة، والبغض محبة،ونكث العهد وفاء والأثرة تضحية لصالح المجموع. هذا هو المثل الأعلى الذى يجب أن نوغل فى الإسراع إليه سيرا على تلك السنة، وتخلقا بأخلاق تلك الشخصية الكاملة، المملوءة حياتها بمكارم الفعال، وجلائل الأعمال، والمترعة بالمثل العملية العليا)[1]. وكما أن النبى ﷺ مثل أعلى لكل الأمة، فإنه مثل للدعاة، إن تطهيرذاتية الدعاة فى العصر الحديث غدا مطلبا مهما لنجاح الدعوة الإسلامية.

وفى كتابه (رجال حول الرسول)، ربط الأستاذ خالد محمد خالد، بين ذاتية النبى ﷺ الطاهرة القوية، وبين تلك التضحيات الهائلة التى قام بها أصحابه رضوان الله عليهم فقال تحت عنوان (النور الذى اتبعوه): (أى معلم كان وأى إنسان هذا المترع عظمة وأمانة وسموا؟: ألا إن الذين بهرتهم عظمته لمعذورون، وإن الذين اقتدوه بأرواحهم لهم الرابحون... رسول الله إلى الناس فسقيظ الحياة، أي سرتوفرله فجعل منه إنسانا يشرف بنى الإنسان؟.. أى إيمان وأى مضاء؟! أى تقديس للحق؟! أى أحترام للحياة والأحياء؟!)

ثم يقول عن كلماته هذه (إنها تومئ على استحياء إلى بعض سمات تفوقه وعظمته، التى جعلت أفئدة الناس إليه، والتى جذبت نحوه فى ولاء لا نظيرله هؤلاء الذين)..

(١) المرجع السابق المقدمة للأستاذ عرفات الدويك.

لم تكد الحياة تنشق عبيرها، حتى جعلت من كل رياحها وأنسامها بشرا بين يديه، ورسلا إلى كل بقاع الإنسان ومواطنه حاملة مبادئ الدعوة وعبير الراعية، وأجل تلك هى الغاية لا أكثر... أن نبصر فى ضوء شعاع من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة التى نادت إليه ولاء المؤمنين، وجعلتهم يرون فيه الهدف والطريق. والمعلم.. والصديق..)[1].

لقد وصل الأستاذ خالد محمد خالد - موفقا - إلي الربط بين الذاتية الطاهرة للنبى ﷺ والذاتية المنفعلة الطاهرة عند أصحابه، وأعطى بذلك أساسا متينا لدراسة سلوكهم المعجز المحير لكل باحث، اسمع إلى قوله: (لكى تبصر فى ضوء شعاع من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة التى نادت إليه ولاء المؤمنين).

وفى القسم الثانى من هذا المبحث سأقدم - بإذن الله تعالى - تصويرا لصدى سمات عظمة النبى ص، عند الذين اتبعوه قبل أن تفرض الفروض. وقبل أن يكتمل الوحى النازل من الله تعالى.

القسم الثانى: أثر الذاتية الفاعلة على المنفعلة

الذاتية الفاعلة هى ذاتية المصطفى ص، والذاتية المنفعلة هى ذاتية الأوائل من المؤمنين، الذين آمنوا فى فجر الإيمان، وأسلموا قبل أن يكتمل بناء[2] الإسلام، ومع ذلك فالدراسة النفسية لا تتجه إلى إثبات هذا الإيمان المبكر، واعتناق دين لم تكتمل أركانه بعد، بل تتجه الدراسة النفسية، إلى قوة التمسك بهذا الدين مع ما تعرض له المعتنقون من تعذيبندهش لقسوتهالآن، - رغم اتساع المساحة الزمنية بيننا وبينهم بما يزيد على ألف وأربعمائة عام، وقوة التمسك بهذا الدين، مع قسوة التعذيب من قبل الخصوم، تثير فى النفس أكثر من سؤال: لماذا تمسك هؤلاء بدين لم تكتمل رسالته بعد، وبإسلام

(١) الأستاذ/ خالد محمد خالد رجال حول الرسول ﷺ ١٤، ١٥ ط دار ثابت القاهرة سنة ١٩٨٤.

(٢) راجع حديث بنى الإسلام على خمس لتدرك صدق هذه المقولة.

لم تقدم كل أركانه؟ وكيف ضحوا بأرواحهم وهم ما يزالون فى بداية الطريق ولما يتبينوا معالمه ومحدداته؟! والإجابة على كل هذه الأسئلة ستأتى بعد أن أقدم للقائ صورة عن ذاتية هؤلاء الأوائل.

إن الذين ضحوا من أجل الإسلام كثيرون، وهم علي طريق الدعوة الإسلامية أعلام هادية، ونجوم تضئ دروب الدعوة وتلهم الرشد للدعاة، وهم عنوان على الدعوة الإسلامية أبقى من الزمان، وأقوى من الحياة، لأنها رسالة من صانع الحياة ومؤقت الزمان.

ومع كثرة هؤلاء الذين ضحوا من أجل الإسلام ومع علو قدرهم سأقتصر فى هذا البحث بالحديث عن أولئك الذين اسلموا وماتوا فى سبيل الإسلام، وهم بمعزل عن مهدفات التضحية ومحفزات الإيمان، فقد آمنوا بالإسلام وواقعه لا يبرهن على قيام دولة يضحى من أجلها ولا يقابل الإيمان بالله الواحد إلا التعذيب والهوان

وعند بداية البدايه، وقبل أن تشرق شمس الاسلام وقف نفر من الضعفاء الذين ليست لهم منعة من آمال ومال، وقفوا فى السحر ينتظرون اليوم الجديد، ومازال التاريخ يؤكد ويعضده فى ذلك على النفس الحديث أن إيمان هؤلاء المتسحرين ظل أقوى من إيمان كثير من الذين ساروا فى ضوء شمس الإسلام الساطعة استضاءوا بنورها، وانتفعوا بنارها، وعن هؤلاء يقول ابن الاثير: (وهم الذين سبقوا إلى الإسلام ولا عشائر لهم تمنعهم، ولا قوة لهم يُمنعون بها، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار، ليفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلب فى دينه ويعصمه الله تعالى منهم).

مثل عليا يجب التمثل بها

ومنهم عمار بن ياسر أسلم هو وأبوه وأمه أسلم قديما ورسول الله ﷺ فى دار الأرقم، بعد بضعة وثلاثين رجلا، أسلم هو وصهيب فى يوم واحد، فكانوا يخرجون عمارا وأباه

وأمه إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء يعذبون بحر الرمضاء، فمر بهم النبى ﷺ فقال: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» فمات ياسر من العذاب. وأغلظت سمية القول لأبى جهال فطعنها فى قلبها بحربة فى يده فماتت وهى أول شهيد فى الإسلام. ومنهم خباب بن الأرت،وكان إسلامه قديما، قبل سادس ستة. قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم فأخذه الكفار وعذبوه عذابا شديدا، فكانوا يعرونه ويصلقون ظهره بالرمضاء، ثم بالرضف، وهى الحجاره المحماة بالنار، ولووا رأسه، فلم يجبهم إلى شئ مما أرادوا منه، هاجر وشهد المشاهد كلها، مع رسول الله ص، ونزلالكوفه ومات سنه ست وثلاثين. ومنهم صهيب بن سنان الرومى ومنهم أبو فكيهه ومنهم لبيبه جارية بنى مزمل، ومنهم زنيرة وكانت لبنى عدى، ومنهم النهديه مولاة لبنى نهد، ومنهم أم عبيس وقيل: عنيس وهى أمة لبنى زهرة[1].

الكلمات السابقة للعلامة ابن الأثير توضح بعض الجوانب الباهرة فى سيرة الأوائل الطاهرة، مع ذلك تحتاج إلى التأمل الدقيق

نظرة فاحصة

جاء فى الفقرات السابقة بعض العبارات التى يحسن بنا الوقوف عندها وهى تتلخص فيما يلى:

أ - إشاعة العذاب ضد المسنين من كبار الكفار، رأينا أبا جهل مثلا يشترك فى تعذيب سمية زوجة ياسر بن عمار، يعذب أيضا بلال بن رباح، ويتدخل فى تعذيب المسلمين.

معنى هذا انهم كانو يعتبرون الإسلام جريمة اجتماعية وليس عملا فرديا يستوجب العقاب من ولى الأمر. وهى قضية خطيرة حَرِية بالتأمل لأنها تظهر مدى المعاناة التى يكابدها كل قادم جديد إلى ساحة الإسلام.

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ٢ ص ٦٦: ٧٠ ط دار صادر ببيروت ١٩٧٩ وانظر فى ذلك تاريخ الطبرى جـ ص ٣٢٥ وما بعدها ط دار المعارف

ب - إن عبارة ابن الأثيرعن تاريخ إسلام عماربن ياسر [بعد بضعة وثلاثين رجلا] توهم أن عمارا أسلم فى وقت واحد مع أبيه وأمه، والحقيقة فى الدخول إلى الإسلام، وترتيب إسلامهم هكذا: [أسلم ياسروسمية وعماروأخوه عبدالله بن ياسر][1].

وهذا الفصل فى تاريخ الإسلام لياسر بن عماروزوجته، وابنة عمار، أمر ضرورى عند التعرض لبحث حالة كل منهم، لأن ما أظهراه –ياسر وسمية - من جَلدوصبر يجعلهما فى مرتبة إبنهما عمار، ويضعهما فى درجة، هيهات أن يصل إليها عمار أو غيره من المسلمين.

وإذا كان التاريخ قد أشاد بعمار لأنه عاش بعد إنتصار الإسلام، وأهمل أبويه فتلك محنة التاريخ التى سأتعرض لها فى نهاية البحث، ولكن يظل مكان ياسروسمية سامقا وشامخا لأنهما من أوائل الأوائل فى الإسلام، وإنهما لو فرطا لأثر ذلك تأثيراً خطيرا فى مستقبل الإسلام بعد ذلك، إنهما جادا بنفسيهما من أجل أن ينعم الآخرون بصحيح العقيدة والعزة فى الحياة: لقد عذبت سمية بنت خياط [من قبل المشركين عذابا أليما وهى عجوز كبيرة، فصبرت ولم تصبأ عن الإسلام][2]، هذه السيدة العجوز كيف تحملت العذاب وكيف تقاس بالذى أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، أو بالذى لم يكره على الكفر أصلا؟!

إن بعض المعذَّبين الأوائل لم يكونوا يتحملون العذاب كموقف سلبى لا يقدرون على غيره، بل كانوا يمارسون الدعوة إلى الله تعالى بالقول والفعل، ويبرهنون على صدق دعوتهم بما يلاقون من عذاب وهوان، ولولا هذه البطولة والبسالة من قبل هؤلاء لظل الدين فى بدايته فرضا نظريا يسهل الالتفاف حوله بفصيح الشعروبليغ النثر، وكان الأوائل المعذبون يدعون لدينهم بطرقهم الخاصة.

(١) عزالدين بن الأثير. اسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ص ٢٤٣ ط دارالشعب سنة ١٩٧٠.

(٢) عمررضا كحالة. أعلام النساء جـ٢ ص ٢٦١ ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م.

فها هى سمية بنت خياط زوجة ياسر بن عمار، وهى أمة عجوز، لاحول لها ولا قوة، وتقف بعد موت زوجها ياسر، تقف - وهى تعلم نهايتها - فى مواجهة رأس الكفرأبى جهل، ولا تكتفى برفض ما يعرضه عليها من شرك، أو من ترك للإيمان، بل تغلظ له القول، وتضعه فى منزلته الطبيعية كسائمة من بهائم الأنعام، وتبين له أن لا عثر من الشرك، وأن الشرك دنس وذلة، وينزرها بأنه سيضعها بين بعيرين يربطها بهما، فى كل بعير يد ورجل، ثم يفصل جسمها عن بعضه، بعد أن يضع حريته فى قلبها، ويخرجها من فمها، استمعت سمية إلى هذا الحكم الذى تعلم أنه سينفذ حتما، استمعت إليه بلا إكتراث، بل عَلت على المشركين من سادتها، ومتهم بالذلة والصغار. [إن سمية "الشهيد" وقفت يوم ذاك موقفا يمنح البشرية كلها من أولها وآخرها رفا لا ينفذ، وكرامة لا ينصل بهاؤها..! موقفا جعل منها "أما" عظيمة للمؤمنين فى كل العصور، وللشرفاء فى كل الأزمان.. !!][1] لقد تفنن المشركون فى العذاب، ولكن ذلك لم يمنع هؤلاء الأوائل من التمسك بدينهم، بل الدعوة إليه أيضا.

هذه المثل العليا العظيمة كان يجب على الأمة أن تتمثل بهم، ولقد رأىورقة بن نوفل حين شاهد بلالا يعذب، أنه لو مات على هذا الوضع من التمسك بدينه حتى الموت، رأى أنه يجب أن يتخذ مزارا طاهرا لمثل طاهر، وربما كان ذلك من الأسباب التى دفعت المركين إلى التخلى عن بلال وبيعه لأبى بكر رضى الله عنه، لأنهم كانوا يقدرون ما للمثل الأعلى الطاهر من تأثير، فها هو رسول الله ﷺ بذاتيته الطاهرة يؤثر فى أصحابه الأوائل، وهاهو بلال يقبل على الموت وهو يدوى بصوته فى جنبات الكون يهزه هزا عنيفا ليخلصه من شركه وبعده عن خالقه سبحانه وتعالى، فيدلهم على محور الوجود «أحد أحد» وينقل إبن كثير فى البداية والنهاية عن إبن إسحاق قوله [فكان بلال بن رباح صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أميه بن خلف يخرجه إذا حميت الظهرة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع

(١) خالد محمد خالد رجال حول الرسول ص ٢٢٣.

على صدره ثم يقول له لا والله لا تزال هكذا، حتى، تموت، أو تكفر بمحمد ﷺ وتعبد اللاة والعزى، فيقول وهو فى ذلك: (أحد أحد) - وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب فيقول أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أميه بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بنى جمح، فيقول أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذته حنانا].

لقد فطن أمية بن خلف إلى تلك الصلة القوية بين ذاتية النبى ﷺ الفاعلة وبين ذاتية أصحابهالمنفعلة. ولذلك طلب من بلال رضى الله عنه أن يكفر بمحمد ص، لكى يفصل ما اتصل بينهما. ولقد فطن أيضا ورقة بن نوفل بعلمه وخبرته أن بلالا لو قتل على هذه الحالة لأصبح مثالا للبشرية كلها مثال خيروطهرونقاء وإذا لم يقتل فقد ضرب المثل فعلا وتركه ملكا لنا جميعا نستخلص منه العبروالعظات وهيهات أن نوفيه حقه هيهات.

ومع تجاهل التاريخ لهؤلاء الأعلام إلا أن مكانتهم ظلت محفوظة عند كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستقبل خباب بن الأرت ويفيه حقه وحين جاء خباب بن الأرت إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال أدن منى فما أرى أحدا أحق بهذا منك، فجعل خباب يريه آثارا فى ظهره مما عذبه المشركون][1]، وهذه شهادة من عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بأنه يستحق أن يدنوا من أمير المؤمنين دنو رفعة وتكريم، لا أحد يستحق أكثر من خباب بن الأرت أحد الذين ثبتوا فكرة الإسلام فى الأرض بما لا قوة فى سبيل الله تعالى من عنت وتعذيب.

(١) ابو نعيم الأصفهانى حلية الأولياء/جـ ١ ص ٣٥٩، ٣٦٠ دار الكتب العلمية ببيروت.

غفلة التاريخ

توفر على كتابة التاريخ الإسلام مجموعة من العلماء الذين بذلوا الجهد وأفنوا العمر فى جميع الأحداث والترجمة للأشخاص، وهو جهد مشكور أتاح لنا فيما بعد اللتتعرف على شخصيات المسلمين أيامهم. إلا أنه يؤخذ على كتاب التاريخ الإسلامى عموما احتفاؤهم بالأشخاص، والعمل الذى يقوم به، وموقعة فى البناء، الهرمى للنظام الإسلامى الإدارى، ولا يهتم كتاب التاريخ بالموقف، بلحظة الصدق، وبالتضحية، ولم يدرك هؤلاء المؤرخون أ، التاريخ - أى تاريخ - يُصتص بالمواقف.

والرواد الأوائل هم الذين يوجهون التاريخ، يصنعون التاريخ، وأما الذين يأتون من بعدهم فإنهم يعيشون التاريخ، هذا الخطأ المبدئ من كتاب التاريخ الإسلامى أدى - فيما بعد - إلى طمس الدور الفذ للأوائل فى الإسلام، والتعتيم عليهم كمثل عليا كان من الممكن أن تفتدى بها الأجيال التالية، نعم لقد وفوا رسول الله ﷺ بعض حقه فى التاريخ الإسلامى، ولكنه النبى والرسول والشخصية الفذة التى لم تتكرر فى التاريخ.

والإنسان العادى ينظر لهذه الشخصية بكل الإجلال والانبهار لكنه يستبعد أن يصل إلى درجتها فى التضحية والثبات فتظل تضحيات وإنجازات النبى ﷺ فروضا نظرية عند الذين جاءوا من بعده ولم يعاشروه.

ولكن الإنسان يجد ما يطلق عليه إمكان الفعل «والإنتقال من الفرض النظرى عندما يجد إمكان الفعل» عند إنسان عادى مثله، وهى مسألة هامة جدا ومتشعبة، غير أننا نجملها هنا عند زاوية إهمال المؤرخين الأوائل الأعلام من الصحابة لأنهم ماتوا مبكرا، ولم يعيشوا طويلا بعد ذلك.

وأكبر دليل على ذلك ما سجله التاريخ الإسلامى لعمار بن ياسر، وهو الذى أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولم يهتم التاريخ الإسلامى بأبيه وأمه الذين ثبتا ثباتاأضاف للإسلام جذورا مازال يعتمد عليها حتى الآن، ويستقى منها ما يجعله مخضرا يانعا، لا بأس، ماذا كان يحدث لو رجع كل الأوائل عن دينهم - بفعل العذاب - بعد أن تلقوه من النبى ﷺ ؟!. ولو حدث هذا لاتقلب الدين - الذى هز الدنيا وغيّرها - إلى مجموعة من الفروض النظرية البليغة، وانفصل عن الحياة، واستبعد من التطبيق نهائيا، وأصبح يشبه شعر الملاحم التاريخية.

ولا تظن أنى بهذا أعطى هؤلاء أكثر من حقهم، لقد كان بقاء الإسلام فعلا وكيانا يتعلق بثباتهم عليه، وموتهم - إذا اقتضى الأمر - من أجله، وقد علق رسول الله ﷺ بقاء عبادة الله تعالى واستمرارها فى الأرض، على بقاء تلك العصابة التى كانت تحارب فى بدر من المسلمين، وقال وهو يدعو ربه: [إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد ذلك][1].

وهذا الحديث ذكر فى كتب السنة والسيرة بروايات كثيرة إلا أنها لا تخرج عن هذا المعنى، فكما علق رسول الله ﷺ . بقاء الإسلام، على بقاء هذه العصابة التى حاربت فى بدر، وهو قول واضح لا لبث فيه، كان الإسلام ومستقبل الإسلام متعلق بثبات أولئك الأوائل على دينهم، من غير أن يتضح لهم مستقبل الإسلام نفسه كدين يموتون من أجله، لقد إنفعلت ذواتهم بذات النبى ﷺ وفهموا منه معنى الحياة ومعنى الموت، ولكى نحدد موقفهم أكثر، سنرجع معا إلى آراء العلماء فى الذين أكرهوا وقلبهم مطمئن بالإيمان، والذين لم يكرهوا وأعلنوا مدوية «أحد أحد»

يقول الإمام الزمخشرى: [وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوابلسانه، مكرها، فقيل يا رسول الله إن عمارا كفر؟ قال [كلا إن عماراملئ إيمانا من قرنهإلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه]، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكى، فجعل النبى ﷺ يمسح عينية وقال

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ غزوة بدر.

مالك؟: [إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت، فإن قلت أى الأمرين أفضل؟ قلت بل فعل أبوية. لأن فى ترك التقية والصبر على القتل إعزازا للإسلام].

وقد روى أن مسيلمة أخذ رجلين، فقال لأحدهماما تقول فى محمد؟ قال: رسول الله، قال فما تقول فىّ؟ قال: أنت أيضا، فخلاه، وقال للآخر ما تقول فى محمد؟ قال: رسول الله، قال رسول الله، قال: فما تقول فىّ؟ قال صلى الله عليك وسلم فقال أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئا له][1]

لا شك فى أن الإمام الزمخشرى رحمه الله تعالى، قد وضع يده على الفرق الهائل بين من أخذ برخصة الله تعالى، وبين من صدع بالحق، ووقف شامخا ليثبت فرضية الدين، وصحة هذه الفرضية، هذا الذى دفع حياته ثمن الصدق، وتصديقه.

ويقول الإمام أبو السعود فى تفسيره لقوله تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) يقول: وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر. عند الإكراه الملجئ. وأن كان الأفضل أن يتجنب عنه، إعزازا للدين كمافعله أبواه][2].. أى ياسر[3] وسمية، وهو يوافق الإمام الزمخشرى فيما ذهب إليه، وكثير من المفسرين يرى: [أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعى][4].

هذه هى الرخصة التى أشار إليها الإمام الزمخشرى من خلال حديث رسول الله ﷺ، وهى تجعلنا لا نشك فى إيمان أحد من الصحابة الكرام، ولا ننزلهم من منازلهم التى وضعهم الإسلام فيها.

(١) الإمام الزمخشرى تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٠٢ ط دار المعرفة بيروت.

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٤٣ ط إحياء التراث العربى.

(٣) أبوه هو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانو. الإصابة جـ ٤ ص ٥٧٥ ط دار نهضة مصر.

(٤) ابن حجر العسقلانى الإمام القرطبى الجامع لأحكام القرآن جـ ١٠ ص ١٠ ص١٩٩، ١٢٠ ط دار الفكر.

ولكن التفريق هنا تفريق فى التصرف والاختيار، فقد كان من الممكن لياسر بن عمار وزوجته سمية بنت خياط وبلال بن رباح، وخباب بن الأرت وأم عميس وغيرهم، أن يستعملوا الرخصة من غير تبعة على إيمانهم، ولكنهم فضلوا عليها الثبات على الحق ثباتا يظهر الحق ويقويه، ويقطع أمل العدو فى النصر على هذا الدين.

لقد كانت صيحاتهم فى التمسك بالحق وهم يعذبون، أشد وقعا على العدو، من وقع السياط على أجسامهم. [إلا أن التاريخ لم يشهد رجالا عقدوا عزمهم ونواياهم على غاية تناهت فى العدالة والسمو، ثم نزروا لها حياتهم على نسق تناهى فى الجسارة والتضحية والبذل، كما شهد فى أولئك الرجال حول الرسول ﷺ][1]، وهم بهذا أمتازوا على الذين أكرهو وقولهم مطمئنة بالإيمان، لأنهم أعطوا لعدوهم درسا قاسيا يوضح له قدسية العقيدة، ولذة التمسك بها.

[إن العقيدة أمر عظيم، لا هوادة فيها ولا ترخص. وثمن الإحتفاظ بها فادح، ولكنها ترجحه فى نفس المؤمن، فى نفس المؤمن، وعند الله تعالى، وهى أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته، وهانت "عنده" الحياة وهان كل ما فيها من نعيم][2].

ولقد تحمل صحابة رسول الله ﷺ الأمانة وأدوها كاملة، وتفرقوا قبل أن يكتمل المنهج، وهم كطالب على تحقق له التفوق فى علوم لم تدرس له بعد.

الهدف: -

يتسم السلوك الإنسانى الطبيعى بأنه سلوك هادف له غاية يمتطى الوسائل ليصل إليها.

فأى هدف كان لهؤلاء قبل أن يكتمل الدين الذى آمنوا به، قبل أن تنتصر دولته، أو قبل أن يكون هناك بارقة أمل لذلك، وكلما سدت عليهم السبل، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ كان يأمرهم بالصبر، ولا يعدهم بشئ قريب من مباهج الحياة.

(١) خالد محمد خالد رجال حول الرسول ص ١.

(٢) الشيخ سيد قطب فى ظلال القرآن ص ٢١٩٧ ط دار الشروق ٩٨٧م.

وخباب بن الأرت يتحدث عن ذلك فيقول: (أتيت النبى ﷺ وهو متوسد ببردة تحت ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامة من لحم أو عصب ما يصرفه عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعا، إلى حضرموت ما يخاف الله عز وجل، زاد بنان: والذئب على غنمة)[1].

النظرية التى يقوم عليها هذا البحث واضحة جليه فى هدى النبى الكريم فى هذا الحديث الشريف، وهذه النظرية هى نجاح التجربة الدينية فى نفوس أوائل معتنقيها بمعزل عن العوامل المرغبة مثل النصر والفوز وغيرها من العوامل، وفى وجود عوامل الرهبة، مثل التعذيب والتنكيل والاضهاد، ونجاح التجربة عند الأوائل، وهو الأساس الذى تقوم عليه الدعوة فيما بعد. ولذلك نبه رسول الله ص، خباب بن الأرت إلى أنهم لابد أن ينجحوا فى التجربة كما نجح الذين من قبلهم وبعد ذلك يأتى النصر ويمضى الراكب من صنعا، إلى حضرموت لا يخشى إلا الله تعالى، والذئب على غنمه، ومعنى ذلك أن التجربة قامت ونجحت فى أفئدة هؤلاء الأوائل بمعزل عن العوامل الخارجية التى تحمل الرغبة، وتحت ضغط الذل والقتل والتنكيل وقامت التجربة على عواملها الأولى ذاتية فاعلة وذاتية منفعلة.

- العوامل الخارجية الموجبة:

من العوامل الخارجية الموجبة التى تؤثر على دخيلة نفس المؤمن العبادات وهى تلك الفروض التى تكرر فى حياة المؤمن أحيانا كل عام، مثل الحج والزكاة والصوم، ومنها ما يكرر كل يوم مثل الصلاة. هذه العبادات تدعم الإيمان فى قلب المؤمن. وهى ضرورية

(١) رواه البخارى جـ٩ ص ٢٦ ط دار الشعب. والطبرانى جـ٤ ص ٦٥ ط العراقة وأبو داود جـ٢ ص ٨ رقم ط حمص سوريا.

لاستمرار هذا الإيمان، ومن يتركها جاحدا يحكم بكفره ولا خلاف بين المسلمين على ذلك، ورسول الله ﷺ جعلها دعائم يقوم عليها بناء الإسلام. ومن غيرها لا بناء، ولا إسلام.

فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»[١].

هذه الأركان لا غنى عنها لثبوت الإسلام الصحيح، والإيمان القوى، ومع ذلك فقد وصل الأوائل لأعلى درجات الإيمان من غير أن تفرض عليهم هذه الأركان - وهذا معنى نجاح الإيمان من غير أن تفرض عليهم هذه الأركان - وهذا معنى نجاح التجربة الإيمانية عندهم بمعزل عن العوامل الخارجية - وهذا ما يوضح قوة ذاتية الداعية الفاعلة التى أثرت فى ذاتيتهم المنفعلة، وإليك حديثا موجزا عن الفروض وتاريخ فرضيتها.

الصلاة: فرضت قبل الهجرة بسنة على الأرجح.[٢]

الصيام: فرض فى شعبان فى السنة الثانية من الهجرة.[٣]

الزكاة: فرضت فى السنة الثانية من الهجرة.[٤]

الحج: اختلف فى وقت فريضته والمشهور أنه بعد الهجرة وجزم به الرافعى، وقيل فى السنة السادسة.[٥]

من النظرة الأولى على تاريخ هذه الفروض يتبين لنا أنها جميعا لم تكن موجودة وقت ثبات ياسر وسمية وبلال وخباب ومصعب وغيرهم على إيمانهم، فكيف تم الإيمان من

(١) صحيح البخارى جـ ١ ﷺ ٥ دار الجيل ببيروت.

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المناهج جـ ١ ط مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٧.

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ﷺ ١٤٨.

(٤) عبيد الله الكوهجى زاد المحتاج جـ ١ ﷺ ٤٣٥ ط المكتبة المصرية ببيرت

(٥) المرجع السابق جـ ١ ﷺ ٢٥٢.

غير مكملاته ومتمماته؟ بل كيف وصلت التجربة الإيمانية إلى أقصاها، من غير عوامل التفاعل الخارجية؟

هذه أسئلة يحار العقل فى الإجابة عليها. إذا لم ينتبه إلى دور الذاتية الفاعلة للداعية الأول: المصطفى ﷺ كان لا يستطيع أن يدفع عنهم أذى، ولا يجلب لهم نفعا، ومع ذلك استمدت نفوسهم الصدق من صدقه.

وهذاالحديث يبين لك الظروف الاجتماعية والنفسية التى يعيشها هؤلاء الأعلام مع رسول الله ﷺ فى مكة المكرمة. عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت: [لما ضاقت مكة وأوذى أصحاب رسول الله، ص، لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ، فى منعه من قومه، ومن عمه لا يصل إليه شئ مما يكره، ومما ينال أصحابه.

فقال لهم رسول الله ﷺ .[(أن رأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فيها فرجا ومخرجا) مما أنتم فيه» فخرجنا إليها إرسالا، حتى اجتمعنا بها)][1]

إذن لا فروض تؤدى يثبت بها الإيمان، ولاحماية قوية يركن إليها الإنسان، فماذا بقى إلا الذاتية الفاعلة الطاهرة على الدوام. وملامح هذه الذاتية الطاهرة نقلها المهاجرون إلى ملك الحبشة. فقد سألهم عن دينهم الذى من أجله تركوا الديار، وعُذبوا، وعن الإنسان الذى اتبعوه، وعن صفاته فقالوا: [نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وعن ما جاء به النبى ﷺ أمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبدالأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له..][2] تلاحظ فى هذا النص عدم ذكر الصلاة والزكاة والصيام، وأن ما ذكر هنا يتعلق بالصفات الذاتية، فماذا كان تطبيق الأوائل لهذه الصفات.

(١) فتح البارى جـ٧ ص ١٨٨ ط دار المعرفة بيروت.

(٢) الإمام ابن كثير البداية والنهاية جـ٢. بشئ من التفصيل فى فقه السيرة للدكتور / محمد سعيد البوطى ص ٩٩

خذ مثلا أداء الأمانة: كّلفت امرأة من بنى عبد الدار الصحابية الجلية النهدية وابنتها بطحن قدر من الحبوب، بعد إسلام النهدية وابنتها، وكانت تقول لهما والله لا اعتقكما أبدا وتدخل سيدنا أبو بكر واشترى المرأة وابنتها، وأمرهما بالخروج من الدار، ولم يكن الطحين قد اكتمل، فاستأذنتاه أن تنهيا عملهما أولا ثم تنصرفا. فوافقهما على ذلك.

إذن التجربة الإيمانية نجحت وانتقلت الذاتية العظيمة، من الذات الفاعلة إلى الذات القابلة، أو المنفعلة، وقد تم ذلك بمعزل عن معظم العوامل الخارجية الإيجابية وفى وجود العوامل الخارجية السلبية الضاغطة.

بهذا نخرج بنتجية هامة، وهى تحضير وتطهير ذات الداعية أولا، قبل الإلمام بمواد الدعوة وإتقانها، وهو موضوع القسم الثالث من هذا البحث.

الفصل الثانى

إعداد الذاتية الفاعلة

القسم الأول: تكوين الذاتية الداعية

تتكون ذات الداعية الصادق المؤثر من عناصر كثيرة تجتمع وتأتلف ليخرج من مجموعها ذات طاهرة صادقة، وقد رأينا فى الصفحات السابقةكيف أثرت الذاتية الصادقة الفاعلة، فى ذوات المدعوين، وذلك قبل أن يكتمل نزول القرآن، وتوضع للإسلام الأركان، ومن أبرز صفات الداعية الصادق ما يلى:

أ – تحضير ذات الداعية

صفة التحضير: وهى تلك الصفة التى تجعل الداعية لا يفاجأ بالرسالة، ولا يوجب الدعوة إلى الله تعالى، ولكنه يكون فى حالة يترقب فيها فجرا لا يعرف شمسه، ولكنه ينتظر ضوءا أتيا لا ريب فيه.

ومرحلة التحضيرهذه تصقل نفس الداعية، لأنها تشعره أن له دورا، وأنه لابد أن يؤديه، ثم إنها بعد ذلك تضيف للنفس البشرية أبعادا كثيرة، منها البعد عن زيف الحياة، والوقوف على حقيقتها، ومنها الاتساع الأفقى لمدارك النفس البشرية. فالنفس فى مرحلة التحضير تتلخص من جاذبية المكان، ومؤثرات البيئة المحلية، وتستشرف آفاق الكون الواسع حتى تقف عند الحقيقة المبدئية الأولى، وهى كون واحد خلقه إله واحد، ويجب أن يخضع لإله واحد، ومن هنا يبدأ الإحساس الصادق بواجب الدعوة إلى الله تعالى. ويبدأ النجاح فى هذه الدعوة ويصبح حقيقة لا ريب فيها.

أما أولئك الذاهلين عن هدفهم، والمغروسين فى واقعهم، ومنهم أولئك الدعاة الذين يدفع بهم إلى حقل الدعوة من غير رغبة منهم فيها فهؤلاء يتحولون مع الوقت إلى دعوة على الإسلام، لا دعوة له، ومن هنا جاءت أهمية مرحلة التحضير فى تكون ذاتية داعية طاهرة، ومؤثرة، ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة - الهواية - وهى أن يهوى الداعية دعوته قبل أن يقوم بها، وبذلك يعمل بإخلاص - غير معلل - يكون دافعا ونافعا لدعوته.

أما ما نجده من إقبال بعض الدعاة على العمل فى حقل الدعوة، مكدرين النفس وأفئدتهم هواء، فهؤلاء لا يرجى منهم خيرا، وإن هم أقبلوا عليه. وحاولوا فعله، وقصارى ما يصل إليه هؤلاء يعتبر دربا من دروب التزكية الذاتية التى لا تنتقل إلى غيرهم، لأن الدعوة العامة إلى طاعة الله تعالى، لم تكن شاغلهم فى يوم من الأيام.

وإذا كانت شخصية النبى ﷺ هى الأسوة والقدوة بالنسبة لكل الدعاة على مر الأزمان. فإن دراسة هذه الصفات فى تلك الشخصية ستكون دراسة حرية بالصدق، ومنطبقة على الواقع الفطرى للنفس البشرية، وذلك يوخذ من طريقين الأول أنه ﷺ هو الذاتية المؤثرة بمعزل عن العوامل التى استخدمت أساسا للدعوة بعد ذلك، والثانى أنه أكمل الشخصيات السوية فى كل العصور.

وعن مرحلة التحضير فى حياة النبى ﷺ يقول ابن هشام: [قال إسحاق: عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهليه والتحنث: التبرر][1].

هذا النص يؤكد على مرحلة التحضير عند المصطفى ﷺ كان يؤكد هلى أن الخلوة والتأمل هى من الأشياء التى يرغب فيها ويصبر عليها، وعن نهاية مرحلة التحضير - حين

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٤٢ ط المكتبة التوفيقية والتنزر تفعل من البر. وتفعل يقتضى الدخول فى الفعل مثل تعبد وتنسك. الروض الأنف جـ ١ ص ٢٦٧.

أكملت النفس الطاهرة استعدادها - تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: «أول ما بدئ رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى غار حراء يتحنث فيه(وهو التعبد) الليالى ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو غائر»[1]

وهذا النص يفيد ما يلى:

١ - أنه أثبت أن التحنث فى غار حراء كان مرحلة من مراحل من مراحل التحضير بعد الرؤيا الصادقة، ولم يكن تحنيثا على طريقة قريش كما تفيد رواية ابن هشام عن ابن اسحاق عن عبيدة بن عمير عن قتادة لأن رواية ابن هشام لا تطمئن النفس إليها.

٢ - أن حديث السيدة عائشة رواه الإمام البخارى فى صحيحة مع اختلاف طفيف[2] فى بعض الألفاظ ولذلك فهى رواية معتمدة.

٣ - أنها تجعل من التحنث فى الغار حالا له ﷺ فتقول حتى فاجأة الحق وهو عائر. وهذا يدل على انصراف النبى ﷺ عن متع الحياة ولهوها لينتظر شيئا تهفوا نفسه إليه. لا يعرف ما هو على وجه التحديد، ولكنه يعرف أن تلقى هذا الشئ يحتاج إلى تحضير وتطهير[3] لأنه أمل صادق تحتاجه حياة - تعيسه فى مكة - لا أمل لها، ولا صدق فيها.

---

(١) ابن الجوزى الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ١٦٢ ط دار الكتب الحديثة ١٩٦٦.

(٢) مثل فكان يأتى غار حراء فيتحدث فيه: وكان يخلو بغار حراء فيتحدث فيه وهو اختلاف لا يؤثر على صدق الرواية.

(٣) هذه الطهارة القبيلة تخرج موقف كثير من الدعاة. توضح سبب فشلهم فى دعوتهم فليس من المستساغ - علميا - أن يظل الإنسان سادرا فى هواء ردحا من الزمن، ثم ينقلب فجأة إلى داعية. لأنه حصل على شهادة تفيد ذلك إن موقف هذا الداعية يحتاج إلى مراجعة لا غنى عنها. ولعله يبدأ من جديد بداية يحدوها الندم. وتظللها التقوى، ومن غير هذه البداية الجديدة لا أمل فى نجاح دعوة هذا الداعية وإن حصل كل العلوم وبرع فى كل الفنون.

٤ - أن السيدة عائشة رضى الله عنها تقول: (ثم حبب إليه الخلاء)، وهذه الجملة وحدها، تظهر الحالة التى كان عليها النبى ص، ومن ترك للتفاصيل الكثيرة، والأمور الصغيرة التى كانت تتفاعل بها الحياة الضيقة فى المجتمع المكى القبلى الوثنى.

لقد سمعا رسول الله ﷺ - فى مرحلة التحضير - بأخلاقه حتى أصبح حكما يرجى رأية فى أد القضايا حساسية فى المجتمع المكى، وهذه الحالة ليست من السهولة فى مجتمع يقدس الرجولة، ويعشق الحكمة، وتوزنفيه أحلام الرجال بدقة تعبيرهم، واعتدال تصرفاتهم، ومع ذلك وصل النبى ﷺ إلى الذروة فى الفضل والكمال. وهو ما زال بعد فى المرحلة التحضيرية، ولعل هذا كان إرهاصا بتحمله بعد ذلك للرسالة الكبرى.

حكم وقضية

الحكم هو النبى ص، والقضية هى وضعالحجر الأسود فى جدار الكعبة الشريفة، ومن من القبائل يكون له شرف هذا الوضع، فبماذا قضى النبى ﷺ : [قال ابن اسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمون بذلك يسقفونها ويهابو هدمها، وإنما كانت رضما حجارة بعضها على بعض من غير ملاط فأرادوا رفعها، وتسقيفها..

قال ابن اسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها. كل قبيلة تجمع على حده، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعة إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دما. ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة، فسموا: لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، ثم أنهم أجتمعوا فى المسجد. وتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم - فيما تختلفون فيه - أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ص، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا هذا محمد. فلما انتهى اليهم وأخبروه بالخبر قال رسول الله ص: (هلم إلىَّ ثوبا، فأتى به، فأخذ

الركن فوضعه فيه بيده. ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه) كانت قريش تسمى رسول الله ﷺ الأمين][1].

هذا النص الذى نقله ابن هشام عن اسحاق يفيد فى مجمله أن النبى ص، قد بلغ مكانة رفيعة فى نفوس القرشيين قبل البعثة، أنهم أرتضوه حكما لأنها، الصراع بينهم، والذى أوشك على القتال بينهم، وهذا ما يؤكد أن النبى ﷺ قد بلغ مكانة عظيمة فى مرحلة التحضير، وأصبح نافذ الرأى بين أهله. إلا أن زاوية النص بهذه الطريقة لا تخلو من ملاحظات.

الملاحظة الأولى:

يقول الرواة إن أمية بن المغيرة أشار على القوم بتحكيم أول داخل عليهم من الباب» وهذا الكلام لا يسلم من النقد، فمن ذا الذى يصدق أن كبار الرجال فى قريش - وبعد أن وصل الأمر بينهم إلى الاقتتال - يلغون عقولهم الحصيفه ويخضعون للصدفة العمياء ويحكمون أول داخل، وهذا النص ليس فيه إساءة فقط إلى الرجال من قريش، بل فيه إساءة بالغة إلى دور النبى ﷺ فى إنهاء هذه الفتنة، لأنه يجعل دوره قائما على المصادفة والمفاجأة، وليس قائما على حكمة حصل عليها عبر جهود شاقة، إن رواية ابن اسحاق غير مقنعة وهو نفسه يظهر شكه فى هذه الرواية بهذا الشكل حين يقول» وهذه الرواية تسوى بين النبى ص، بحكمته البالغة النضج، وبين أى رجل من السايلة فى مكة.

الملاحظة الثانية:

إن بعض كتاب السيرة - يصفون الجانب الظاهر فقط من كل قضية يتناولونها. من غير تمحيص، وإن كان لهم فضل فى التاريخ الإسلامى فهو فضل النقل فقط، ولعل القصة التى بين أيدينا هى من أكبر الأدلة على هذا الإتجاه - عند كتاب السيرة.

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٣، ٢٠٤.

والذى ترتاح إليه النفس أن مشاورات كثيرة ولقاءات طويلة قد حدثت فى مكه فى فترة الأربع أو الخمس ليال التى استمر فيها النزاع، وهى فترة كافية للوصول إلى حل لهذا النزاع، فى مجتمع محدود مثل مكة المكرمة. ولعل النبى ﷺ شارك فى هذه المفاوضات بين أهل مكة والمقطوع به أنهم اتفقوا على تحكيمه فى هذا الصراع، وأن ينزلوا على حكمه، وقد سجل الرواة لحظة التنفيذ فقط ولما حاول فهم السر من وراء «أول داخل» وهذه الطريقة فى سرد السيرة النبوية هى من الغيوم التى تنعقد فى سماء السيرة النبوية الشريفة، فتحجب الرؤيا، وتغيب الحقيقة.

الملاحظة الثالثة:

أنهم لما رأوه قالوا هذا الأمين. محمد رضينا، وهذا يثبت الخلفية الطاهرة للذات الطاهرة للنبى ص، وهذا واضح من النداء المفعم بالاحترام، «هذا الأمين.. رضينا».

ويبقى السؤال: ماذا لو دخل غير الأمين هل كان سيتفق القوم. أم كانوا سينتظرون الأمين حتى يأتى؟ وما الذى لا يجعلهم يتفقون عليه قبل التنفيذ بيوم أو يومين؟ طالما أنه الأمين المعرف بالأمانة "ال أمين" هل كان فى مكة أمين غيره يختصم إليه القوم؟ لم يكن غيره فهو الأمين، وهو الحكيم، وهو الطاهر، وكل ذلك فى مرحلة التحضير للرسالة.

حلف الفضول

يقول النبى ﷺ عن حلف الفضول[١]: [(لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى إليه فى الإسلام لأجبت)][٢].

ويقول الدكتور رؤف شلبى عن اشتراك النبى صى الله عليه وسلم فى حلف الفضول [ولم يكن سيدنا محمد ص، واحدا من الناس يوم أن استجاب إلى هذا الحلف الذى وظف نفسه لإقامة العدل من أجل العدل ذاته، ولكنه كان عملا واستجابه وعمل متفق مع الحاسية والوجدان الاجتماعى الذى حفل به الصدر المحمدى الكريم، فكان هذا الاشتراك فى حلف الفضول تهيئة اجتماعية لدرء المظالم، ورد الحقوقوإقامة العدل الاجتماعى، دون مقابل أو أجر][٣].

وعن تسميته بالأمين يقول: [لم يكن وصفا عابرا، ولا كلمة مجاملة، ولكنه كان خلقا عند القوم أخذوا به. وارتضوه حكما. وقاضيا يوم أن أعلنت ألسنة الحرب والدمار والخراب][٤].

هذه الكلمات الطيبة تعبر بصدق عن مرحلة التحضير التى سبقت مرحلة التطهير مرحلة التحمل والأداء، والاشتراك فى حلف العدل والخير - حلف الفضول - والقضاءبين سكان مكة، ونزع فتيل الحرب من بينهم ليست كل مواقف الحبيب المصطفى ص، فى المرحلة التحضيرية. ولكنها نموذج لما كان عليه الحال بالنسبة لهذه الذاتية الفاعلة

(١) اتفاق جماعة من قريش على الدفاع عن الحق ورد المظالم وشهده النبى ﷺ .

(٢) سيرة ابن هام جـ١ ص ١٤٠ روى الحديث ابن اسحاق عن عبدالله بن عوف الزهرى.

(٣) د/ رؤف شلبى المجتمع العربى قبل الإسلام ص ٣٠٨ ط دار الكتب الحديثة.

(٤) المرجع السابق ص ٣١١.

تطهير ذات الداعية

وصفة التطهير بالنسبة للنبى ﷺ تختلف عنها بالنسبة للدعاة جميعا فى كل زمان ومكان، لأن النبى ﷺ ذات النبى ﷺ إلا ترسيخ لصفة الكمال عنده، ورفع لدرجته على العالمين، أما التطهيربالنسبة لباقى الدعاة فهو محاولة مستمرة - بالعابدة والطاعة - لتنية ما عسى أن يكون قد لحق بذاتية الداعية من صفات تناقض دعوتة، أو تعطل سيره، أو تحجبه عن الرؤيا الصحيحة لأوامر الإسلام ونواهيه. وماضى الإسلام وحاضره ومستقبله.

ولكى تكون المعالجة لتطهير ذاتية الداعية معالجة علمية، يجب أن نبدأ بذات الداعية الأول: المصطفى ﷺ. ومع التنبيه دائما على أن التطهير فى حقه رفعة وفى حق غيره من الدعاة دفعة إلى الأمام، وهذه المرحلة التى نتحدث عنها بدأت مع بداية الوحى، وكان التركيز فيها واضحا على تكليف النبى ﷺ ببعض العبادات التى ترفع شأنه كداعية وتجعله أهلا للتلقى، وكفنا للتحمل.

بعد أن استمع الرسول ﷺ إلى الوحى الأول من الأمين جبريل عليه السلام، تعرف على ربه سبحانه وتعالى من قوله تعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1].

بعد أن استمع النبى ﷺ إلى هذا النداء فى غار حراء الذى كان يخلو فيه الأيام ذات العدد، خرج منزعجا وعاد إلى بيته[2]. وإلى زوجته خديجة رضى الله عنها ونام متزملا: ناداه الأمين جبريل ليوقظه ويبلغه رسالة الحق سبحانة وتعالى:

(١) سورة الفلق ١: ٥

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ١ ﷺ ٢٤٣ ما بعد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾[1].

هذه الآيات ترسم الطريق الذى يجب على الداعية أن يسلكه لتزكية نفسه، قبل أن يبدأ فى تزكية نفوس الآخرين، وسوف أنقل هنا رأى بعض المفسرين موجزا للوقوف على معنى الآيات المباركة، وأبدأ برأى العلامة ابن كثير (يأيها المزمل قم الليل الا قليلا)، يأمر الله تعالى رسول الله ص، أن يترك التزمل، أى التغطى بالليل، وينهض إلى القيام إلى ربه سبحانه وتعالى:

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾: أى أمرناك أن تقوم نصف الليل، بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك.

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾: أى اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونا على فهم القآن وتدبره.

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾: قال الحسن وقتادة أى العمل به، وقيل ثقيل وقت نزوله من عظمته.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾: يقال نشأ إذا قام من الليل، وهى أجمع للخاطر فى آداء القراءة وتفهمها.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾

أى كثر من ذكره. وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذ فرغت من أشغالك. ما تحتاج إليه من أمور دنياك[2].

فى هذه السطور للعلامة ابن كثير ملامح عامة: عن إعداد النبى ص، من قبل ربه سبحانه وتعالى، ومن قبل نفسه لتحمل الرسالة، وتحمل القول الثقيل، وبرغم كثرة الآراء

(١) المزمل ١: ٩

(٢) نقل بإيجاز عن تفسير إبن كثير ج ٤ ﷺ ٤٣٥: ٤٣٧.

التى نقلها ابن كثير عن ثقل جسم النبى ﷺ وهو يتلقى الوحى، إلا أن النفس تميل إلى إلى رأى الحسن وقتادة: أن ثقل القول يكون فى العمل به، أى المسئولية التى سيتحملها، ومن هذه الآيات وتفسير ابنكثير لها، تبرز صورة الإعداد والتطهير لذاتية الداعية، لكى يتثنى لها التأثير فى دوات المدعوين فيما بعد.

ويقول الشيخ سيد قطب فى تفسيره لهذه الآيات السابقة: [إنها دعوة السماء وصوت الكبير المتعال: قم. قم للأمر العظيم الذى ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب والجد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد... إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة. قيام الليل: أكثره: أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه، وأقله: ثلث الليل... كان هذا الإعداد للقول الثقيل الذى سينزله الله تعالى..

وهذا هو القرآن وما وراءه من التكاليف والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر، ولكنه ثقيل فى ميزان الحق. ثقيل فى أثره فى القلب.. وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل... وإن الاتصال بالملأ الأعلى وروح الوجوه، وأرواح الخلائق الحية الجامدة، على النحو الذى تهيأ لرسول الله ص، يحتاج إلى استعداد طويل.. وأن الاستقامة على هذا النحو الذى تهيأ لرسول الله ص، يحتاج إلى استعداد طويل.. وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا أرتياب، ولا تلفت هنا أو هناك، وراء الهواتف والجوانب والمعوقات ثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل][1]

نكتفى بهذا القدر من تفسير الشيخ سيد قطب لهذه الآيات، وهو يوضح دلالة الآيات الكريمة على وجوب استعداد الداعية بالعبادات والتطهير والتركيز، لكى يستطيع القيام

(١) الشيخ سيد قطب فى ظلال القرآن جـ ٦ ﷺ ٣٧٤٤، ٣٧٤٥ ط دار الشروق.

بعبء الدعوة بعد ذلك ولذلك فهو يقول بعد هذه السطور: [إن قيام الليل والناس نيام، والإنقطاع عن عيش الحياة اليومية وسفاسفها، والا تصال بالله تعالى، وتلقى فيضه ونوره.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبئ الباهظ والجهد المرير الذى ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل][1]. يوضح المؤلف فى هذه السطور أن واجب الإستعداد للدعوة يلزم كل الدعاة الذين يتصدون لهذه الدعوة. وليس خاصا بالنبى ﷺ .

- آيات سورة المدثر:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[2].

هذه الآيات المباركة مثل آيات سورة المزمل تحض النبى ص، على القيام بالدعوة لله تعالى، والقيام بواجب الدعوة، وهو تزكية الذات لكى تكون ذات فاعلة، يمكنها التأثير فى غيرها من ذوات المدعوين، وقبل أن نخلص إلى نتائج هذه الآيات نستطلع رأى بعض علماء التفسير لكى تكتمل الصورة من عدة زوايا للرؤيا.

رأى الإمام ابن كثير:[3]

فى بداية تفسيره لهذه الصورة يحاول الإمام أن يجمع بين الرواية التى تقول: إن سورة المدثر هى أول ما نزل من القرآن فيقول [ووجه الجمع أن أول شئ نزل بعد فترة الوحى هذه السورة. كما قال الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (ثم فتر الوحى عنى فبينأنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى قبل السماء، فإذا

(١) فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٧٤٥.

(٢) سورة المدثر ١:٧

(٣) تفسير ابن كثير جـ ص ٤٤٠: ٤٤١

الملك الذى جاءنى قاعد على كرسى بين السما والأرض، فجثيت منه فرقا، حتى هويت إلى الأرض. فجئت أهلى فقلت لهم زملونى. فزملونى.

فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. ثم حمى الوحى وتتابع) أخرجاه من حديث الزهرى.

وقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أى شمر عن ساق العزم وأنذر الناس. و﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أى عظم. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن ابن عباس: لا تلبسها على المعصية، ولا على غدرة. وعن ابن عباس أيضا فطهر من الذنوب. وعنه أيضا: طهرمن الإثم، وقال مجتهد: نفسك ليس ثيابك، قال أيضا أى عملك فأصلح، وقال قتادة: أى طهرها من المعاصى، وقال محمد بن سيرين أى اغسلها بالماء، وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر، وقال محمد بن كعب والحسن البصرى: وخلقك فحسن.

- ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ عن ابن عباس. الرجزوهو الأصنام فاهجر. وقال إبراهيم والضحاك أى اترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشئ من ذلك.

- ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابن عباس: ولا تعط العطية تلتمس أكثرمنها. وقال الحسن البصرى: لاتمنن بعملك على ربك تستكثره. وعن مجاهد لا تضعف أى تستكثر من الخير.

- ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أى اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عزوجل، وقال إبراهيم الحنفى: أصبر عطيتك لله عزوجل.

يركز الإمام ابن كثير فى الآراء التى جمعها عن العلماء، والآراء التى قالها هو، على أن تظهر ذاتية الداعية هو المقصود بهذه الآيات، وقد نقل عن غيرواحد من السلف الصالح، أن معنى وثيابك فطهر "تطهير الذات" وليس الثياب. وفى "ولا تمنن تستكثر" أميل إلى رأى الإمام الحسن البصرى، وإن قد أتى به متأخرا.

- رأى الشيخ/ سيد قطب:

يرى الشيخ سيد قطب أن هذه تتعلق بذاتية الداعية ويتحدث عن وقت ومناسبة نزول هذه الآيات فيقول: [إن النظر فى النص القرآنى ذاته يوحى بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ ربما يكون قد نزل مبكرا فى أول أيام الدعوة، شأنه فى ذلك شأن مطلع سورة المزمل. إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾.

وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول ﷺ للنهوض بالتبعة الكبرى، ومواجهة كافة قريش بعد ذلك بالدعوة جهارا. مما سيترتب عليه مشاكل كثيرة ومتنوعة، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسى سابق.. وأيا ما كان السبب والمناسبة، فقد تضمنت هذه السورة فى مطلعها ذلك النداء العلوى بإنتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل. وإنتزاعه من النوم والتدثر، والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة [يا أيها المدثر قم فأنذر] مع توجيهه - ﷺ - إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم، والإستعانة عليه بهذا الذى وجهه الله تعالى إليه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ والإنذار هو أظهر ما فى الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب، الذى يترصد للغافلين السادرين فى الظلام وهم لا يشعرون. وفيه تتجلى رحمة الله تعالى بالعباد، وهم لا ينقصون فى ملكه شيئا حين يضلون، ولا يزيد ونفى ملكه شيئا حين يعتدون. غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية، ليخلصوا من العذاب الأليم فى الآخرة، ومن الشر الموبق فى الدنيا...

ثم يوجه رسوله فى خاصة نفسه بعد أن يكلفه نذارة غيره، يوجهه إلى تكبير ربه ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [وربك فكبر] ربك وحده الكبير يقرر جانبا من التصور الإيمانى لمعنى الألوهية، ومعنى التوحيد.. أن كل أحد وكل شئ، وكل قيمة صغيرة... والله وحده هو الكبير..

وتتوارى الأجرام والأحجار والقوى والقيم والأحداث والأحوال، والمعانى والأشكال، وتنمحى فى ظلال الجلال والكمال، لله الواحد الكبير المتعال، وهو توجيه للرسول ﷺ -

ليواجه نذارة البشرية، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها، بهذا القصور وبهذا الشعور، فيستصغر كل قوة، وكل عقبه، وهو يستشعر أن ربه الذى دعاه ليقوم بهذه النذارة، وهو وحده الكبير، وشاق الدعوة وأهوالها فى حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور.

ويجهه إلى التطهير، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وطهارة الثياب كناية فى الإستعمال العربى عن طهارة القلب والخلق والعمل، طهارة الذات التى تحتويها الثياب، وكل ما يلم بها أو يمسها.

والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى، كما أنها ألصق شئ بطبيعة هذه الرسالة. وهى بعد هذا وذاك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ ومواصلاة الدعوة فى وسط التيارات والأهواء، والمداخل والدروب، وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كى يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث، وملابسه المنسين من غير أن يتدنس، وهى لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات المدنسين من غير أن يتدنس، وهى لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط، وشتى البيئات، وشتى الظروف، وشتى القلوب...

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ والرسول ﷺ كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة. فقد عافت فطرته السليمة ذلك الإنحراف - ولكنه يعنى تحرز بالتطهر من مس هذا الدنس.

- يوجهه إلى إنكار ذاته. وعدم المن بما يقدمه من الجهد، أو استكثاره واستعظامه ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير. وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثر، ويمن به، وهذه الدعوة لا تستقيم فى نفس تحس بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه.

- ويوجهه أخيرا الصبر، والصبر لربه ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾، والصبر هو هذا الزاد الأصيل فى هذه المعركة الشاقة، معركة الدعوة إلى الله تعالى، المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس، وأهواء القلوب[1].

نقلت هذا النص بطولة للمرحوم العلامة الشيخ سيد قطب لأنه استوعب كثيرا من جوانب عملية التطهير الذاتية والتى تشير إليها هذه الآيات المباركات.

تعقيب أول

بعد أن قدمنا - فى خلال هذا البحث - للذاتية الفاعلة، والذاتية المنفعلة، وجدنا أن ميدان الدعوة الإسلامية مازال خصبا، وغنياب العبر والدروس التى تساعد الباحثين فى هذا المجال، وتضئ لهم الطريق إلا أنه يجب التنبية إلى:

أن التاريخ الإسلامى خاصة السيرة النبوية الشريفة لم يكتب بطريقة تتيح للباحث الإستفادة من تلك الدروس العظيمة التى فى أشاء هذا التاريخ، وأكبر الأدلة على ذلك، ما كتب عن سيرة الرواد الأوائل الذين ضحوا بحياتهم ليحافظوا على عقيدة التوحيد خالصة لا ريب فيها. وضربوا أروع الأمثلة فى التمسك بعقيدتهم. والتضحية فى سبيلها، ولكن التاريخ –أو كتاب التاريخ لم يقفوا عند تاريخ هؤلاء ليمحصوا، ويفسروا ويعطوا الحدث حقه من البحث والدرس، بل نقلوا إلينا أخبارهم سريعة موجزة. مع اشتهار هؤلاء الكتاب بالإطناب والسرد فى أمور غير ذى قيمة، مثل نقل كثير من شعر الهجاء بين الفرق المتخاصمة.

ويؤخذ أيضا على التاريخ الإسلامى إهماله لحقيقة الحدث. ومغزاه وإهامام بعض كتابه بالتفاصيل الكثيرة، من أمثلة ذلك: قصة تحكيم النبى ﷺ بين أهل مكة فى وضع الحجر الأسود فى مكانه، وكيف أن معظم مصادر التاريخ الإسلامى، أو السيرة النبوية الشريفة تؤكد أن ذلك قد تم بالصدفة البحتة، من غير مقدمات تقوم على أسس متينة.

(١) فى ظلال القرآن جـ ٦ ﷺ ٣٧٥٢: ٣٧٥٥.

تعقيب ثان

أنه ثبت أن الذين دخلوا فى الإسلام فى بداية الدعوة كانت نصوص الإسلام التي نقلت إليهم قليلة فى عددها، صعبة فى الحصول عليها، بله التوفر على دراستها.

وثبت أيضا أنهم أسلموا قبل أن تفرض أركان الإسلام المعروفة ما خلا ركن الشهادتين. وإذا كان الإسلام الكامل لا يقبل الأن بتنفيذ هذه الأركان، إلا أن إيمان الأوائل كان قويا فتيا صلبا لا لين فيه، وهذا يفتح الباب لكثير من الدراسات عن طبيعة إيمان هؤلاء، وعن عناصر إيمانهم، وهذا يفيد فى التركيز على الناحية الروحية عند الداعية والمدعوين على السواء، مع عدم إهمال الأركان الإسلام الظاهرة، التى جعل رسول الله ﷺ بناءه. يقوم عليها - وإذا كان هذا البحث قد ركز على ذاتية الداعية للبحث عن سر ايمان وإخلاص الأوائل إلا أن البحث لا يصل إلى غايته الكاملة إلا ببحث ذاتية المدعوين فى هذه الفترة أيضا لإستخلاص النتائج منها ليكون ذلك منهجا متكاملا مبسوطا أما الدعاة. وستبقى الدعوة لكل من يريد أن يدلى بدلوه.

الفصل الثالث:

نتائج هامة

(يجب أن نبدأ من هناك)

نتائج البحث:

لهذا البحث عدة نتائج منها: تصحيح بعض الأخطاء التاريخية، وإثبات أن الرواد الأوائل قد كمل إيمانهم، قبل أن تكمل أركان الإسلام وكيف أننا لم نصل إلى منزلتهم فى الإخلاص والتضحية وبين أيدينا القرآن الكريم كاملا، ومئات التفاسير حول مضمونه، والسنة الشريفة ومئات المؤلفات جولها، وآلاف مؤلفة من الكتب الإسلامية فى موضوعات شتى، أى أن كم المعلومات الذى يحصل عليه المسلم العادى الذى لا يتمسك بدينه كما يجب، يساوى آلاف المرات تلك المعلومات القليلة التى كانت تضئ رأس بلال بن رباح، وهو يهتف فى رمضاء مكة أحد أحد والتى كانت تشرق فى أعماق ياسر بن عامر، وزوجته سمية بنت الخياط، وهما يسلمان الروح لبارئهما سبحانه وتعالى، وعصابة الشرك تمثل بهما أسوأ تمثيل وتنكل بهما تنكيل، وهما يتحملان ذلك. وقد جعلا رضا الله تعالى غاية، والثبات على دينه بداية ونهاية.

وهذه بعض النتائج التى كشف البحث عنها.

ولكن هناك نتيجة أساسية إنتهى إليها البحث. وهى طهارة الذاتية الفاعلة، وتأثيرها على المدعوين، وقد وصل البحث إلى هذه النتيجة حين قمنا بدراسة ثبات المدعوين على

الإسلام حتى الموت فى الوقت الذى لم يكن قد نزل من القرآن الكريم إلا الآيات القليلة، ولم تكن أركان الإسلام قد فرضت بعد، لم تكت الدولة الإسلام الفتية قد ظهر ضوءها فى الأفق.

فلم يبق إلا أن الذى قد أثر فى هؤلاء الأوائل العظام، هو ذاتية الداعية الأول المصطفى ﷺ . أى انهم إقتنعوا به داعيه. قبل أن تكتمل دعوته، ولما علموا منها القليل، ضحوا بحياتهم فى سبيل حماية هذا القليل وتوريثه إلى الأجيال التالية من أبناء الإسلام.

وتفيد هذه النتيجة - قوة الذاتية الفاعلة - فى حفل الدعوة الآن أنها تجعل الداعية المعاصر يبدأ البداية الصحيحة. على الطريق الصحيح وتكون بدايته تطهير ذاته، وثقلها بالإيمان، حتى يتاح له ينقل حرارة الإيمان بعد ذلك إلى قلوب المدعوين، وهذه هى البداية الصحيحة لكل داعية ناجح فى دعوته، وهى مأخوذة من سيرة إمام الدعاة المصطفى ﷺ

ولابد للداعية الذى يريد لدعوته النجاح أن يمر بمرحلتى التحضير والتطهير، حتى تتكون لدية ذات فاعلة طاهرة، وقد سبقت آيات سورة المزمل حيث جاء إعداد الداعية. قبل تحديد معالم الدعوة التى سيقوم بها. والإعداد هنا هو الإعداد النفسى الداخلى للفرد. وهذا هو أساس الذاتية الفاعلة.

فى عصرنا الحاضر ينقسم الدعاة بحسب مواردهم الثقافية وتوجهاتهم النفسية إلى أقسام عديدة. فيوجد الداعية الذى يعتمد على الجدل الكلامى ويعتبروه ذروة الأساليب المقنعة. ويوجد الداعية الذى يعتمد على ما يحفظه من أحاديث الرسول ﷺ ومنهم من يعتمد على الشعر والبلاغة اللفظية، ومنهم من يعتمد على الأساليب الوعظية الإنشائية.

وبالنسبة للتوجهات النفسية فهناك الداعية صاحب الإتجاه السلفى الذى يتمسك بظاهر النصوص دون النظر إلى ما تشتمل عليه من معان روحية. وهناك الداعية صاحب الإتجاه الصوفى الذى ينظر للدعوة على أنها دعوة للعبادة فقط، وليست إطارا يحتوى الدين والدنيا معا. المهم أن كل صاحب إتجاه فى الدعوة إلى الله تعالى يظن أن إتجاهه هو

الأمثل للتأثير على المدعوين، ويجادل أصحاب الإتجاهات الأخرى، وفى هذا الصراع بين الإتجاهات والتوجهات، تنزوى القضية الكبرى، واللبنة الأولى فى بنيان الدعوة الإسلامية، ألا وهى قضية تطهير الذاتاتصبح ذاتا فاعلة. وكما ينبغى للداعية أن يلم بكثير من العلوم التى يستخدمها فى دعوته، فإن عليه قبل ذلك أن يحصل شيئا من التقوى يؤسس عليه هذه الدعوة وينتقل عن طريق التطهير بذاته من الذات الخاملة إلى الذات الفاعلة.

أى يجب على الداعية أن يبدأ بالنظر إلى دخيلة نفسه ينقيها ويطهرها، فإذا أدرك أنه قطع شوطا لا بأس به، بدأ ينظر إلى خارج نفسه، وبدأ يستعمل زاده الروحى فى نقل روحانيات الشريعة إلى قلوب المدعوين.

ومن الملاحظ أن بعض الدعاة ينظرون إلى جهدهم المبذول فى الدعوة إلى اللع تعالى نظرة "كمية" أى يقيسون نجاحهم بكم المحاضرات والدروس التى ألقوها. وشرحوها، ولا ينظرون إلى "الكيف" وهو تأثير هذه المحاضرات على المدعوين، ولو اقتصدوا فى جهدهم المبذول بعض الشئ، واتجهوا لذواتهم، فقوموا إعوجاجها، وغسلوا أدرانها، وأزالوا شكها، وزكوها، وسألوا الله تعالى أن يزكيها لهم لنجح مسعاهم.

ومن الدعاة من يرجو بدعوته الدنيا، فهى تعنى عنده الجاه والمال، أو أحدهما، ولديه كثير من الأدله الى تسوغ له ذلك. ومع ذلك يشكوا من إنصراف المدعوين عنه، وهو لا يعلم أن نجاحة فى دعوته يبدأ من ذاته، فالذات الطاهرة ذات فاعلة، وصدق مشاعرالداعية هو حجر الزاوية فى نجاح دعوته وسيرها متدفقة فى قلوب المدعوين، ولابد أن نفرق دائما بين الدعوة التتؤثر فى نفوس المدعوين، وبين الدعوة، وفى سلوك المسلمين الأوائل، وكيف أثرت فيهم ذات المصطفى ﷺ قبل أن يكتمل القرآن نزولا، وتتم أركان الإسلام فروضاً.

.....ويجب أن نبدأ من هناك.

الباب الثاني

الذاتية المنفعلة

الفصل الأول

الجانب النظرى من انفعال الذات

يتشابه الأفراد والجماعات فى كثير من أوجه النشاط الإنسانى، ويظل لكل فرد أو جماعة ميزة خاصة تعبر عن الذاتية أو الشخصية المستقلة لهذا الفرد أو لهذة الجماعة، وهذا البحث يهدف إلى بيان الصورة الذاتية للأوائل اللذين اعتنقوا الإسلام بذاتية منفعلة، استقبلت الإيمان وخالط شغاف قلوبهم، لم تبلور سلوكا حبا متجاوبا.

هذه الدراسة لا تركز على الناحية التاريخية، أو القصصية فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولكنها تركز على الناحية النفسية، وعلى أبرز جوانبها وهو التجاوب الصادق مع الدعوة الإسلامية تجاوبا لم يترك مسافة واضحة بين القول والفعل، أو بين الفكرة والعمل. وهذا التجاوب يسمى عند علماء النفس بالإنفعال، أو الوجدان ويرى فرويد (أن الوجدان أو الإنفعال حالة شعورية. ولكن الأفكار لا يمكن أن تكون لا شعورية لأن الفكرة بحكم أنها فكرة شعورية. وإذا كانت لا شعورية فإنها ليست فكرة. وقدموا نفس الاعتراض على الانفعال، فالانفعال لا يمكن أن يكون لا شعوريا، وهو انفعال فقط لأنه شعورى)[1].

فالإنفعال حالة شعورية تعترى الفرد. وتجعله ينفعل ويكون ردود الإنفعال العكسية الشرطية تجاهها. ولكن يعترض الاسترسال فى الحديث عن الإنفعال سؤال هو:

ماهو الحالة النفسية التى تميز فرد عن فرد فى قبول فكرة معينة واعتناقها ومحاولة إخراجها سلوكا ملموسا بالنسبة للآخرين؟

(١) د/ عبد المنعم الحفى موسوعة علم النفس جـ١ ص مكتبة مدبولى١٩٧٨ م

الإجابة عند علماء النفس - أنها الدفعة الفطرية، ويعرفونها هكذا "الدفعة الفطرية" استعداد فطرى نفسى، يسمح لصاحبه باكتساب الاستجابة لأنواع معينة من الموضوعات أيسر مما يستجيب لأنواع أخرى، كما يتيح له معاناة أنفعال معين، تجاه هذه الموضوعات المعينة وأن يشرع فى سلسلة من الانفعالات تتوقف عند هدف معين، وتفرز سلوكه المفضل إلى الهدف المفضل)[1]

فى هذا النص يتضح أن الاستعداد الفطرى يكسب صاحبه مميزات معينة مثل:

مميزات الذاتية المنفعلة

١ - يتميز بأن لديه استعدادا فطريا نفسيا.

٢ - اكتساب الاستجابة لأنواع معينة من الموضوعات.

٣ - معاناة انفعال معين تجاه موضوع معين.

٤ - إحداث سلسلة من الأفعال تتوقف عند هدف معين.

٥ - سلوك مختار إلى هدف مختار.

ومن خلال هذه العناصر تبرز فكرة الذات المنفعلة بروزا يكشف عن ماهيتها ويحدد هويتها ويفرق بينها وبين الذات الخاملة، وتحدد معالمها كما يلى:

أولا: الاستعداد الفطرى:

وهو الخاصية المركوزة فى النفس البشرية والتى تجعلها تتواءم وتتفاعل مع أهداف معينة، ومن هذا يتضح أن النفس البشرية لديها الاستعداد للإنفعال وهذا الاستعداد يسمى الدفعة الفطرية ولكن يعترض هذه القاعدة سؤال مهم.

إذا كان الاستعداد للإنفعال دافعة فطرية قهل يتساوى الناس فى الاستجابة لكل الانفعالات؟ والجواب أن الناس ينفعلون - كدافعة فطرية - ولكنهم يختلفون فى انفعالاتهم

(١) المصدر السابق جـ ١ ﷺ ٢٧٧

ويبقى لكل منهم اختياره الخاص ولكن الله تعالى خلق فيه - أى الإنسان فهم المعنى والانفعال له، أو الإنفعال عليه، أو الإنفعال منه، ويحدد كل ذلك مدى استجابته لكل موضوع من الموضوعات المعروضه عليه ويبرز هذه الخاصية عند الإنسان قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾[1]

فالناس متساوون فى الاستعداد للإنفعال مختلفون فى الاستجابة لهذا الانفعال أو لغيره تبعا لاختلافهم فى اختيار الهدف من ناحية القبول أو الرفض، فالآية الكريمة توضح أن الدافعة الفطرية موجودة لدى كل الناس وهى الإستجابة للخير أو الشر.

ولكن يختلفون فى الاختيار بين الفجور والتقوى، وعلى هذا يكون حسابهم، إن خيرا فخير، وإن الشر افشر.

ثانيا: معاناة الانفعال

ومعاناة الانفعال من أبرز سمات الذاتية المنفعلة، وهو جوهر حياتها وهو ما يقابل الإستكانة فى الذات الخاملة، ومعاناة الانفعال فى الذاتية المنفعلة، هو ما يدفع الإنسان إلى خارج نفسه، والتلاشى فى نطاق الهدف العام، وهذا يفسر لنا سلوك صحابة رسول الله ﷺ حين كانوا يتركون ديارهم وأموالهم وحياتهم الرغيدة، ويقبلون على الموت فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، فهذا هدف سام لا تصل إليه النفوس الذليلة، والآمال الكليلة:

والإنفعال إلى خارج النفس يمثل الرقى الإنسانى بأسمى معانيه والحياة داخل النفس دون معاناة الانفعالات العامة تعتبر موتا مع استمرار الحياة بمعناه الحيوانى ولذلك يقول الشاعر فى الذين لا يشعرون بآلام أوطانهم:

ومن يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

(١) من سورة الشمس الآيتان ٧ - ٨

وهـذا المعنى الـذي قـصده الـشاعـر، هـو الـسمة الغـالبة للذين يعيشـون فى داخل أنفسهم ولا يشعرون آلام ومعاناة الآخرين، ولذلك يريحون أنفسهم من معاناة الانفعال ولكنهم يقتلونها فى نفس الوقت، لأن معاناة الانفعال وإن كانت تسبب عنتا لرغبات النفس الأنية إلا أنها تحييها وتجلب لها الخلود، وتحليها بأرق الصفات التى تجعل الإنسان إنسانا.

ثالثا: إنفعال معين تجاه موضوع معين:

هذا هو الاختيار بين الانفعالات وبين الموضوعات وبرغم إتفاق الناس جميعا فى الانفعال، إلا أن اختيار الهدف يتوقف عليه اختيار الانفعال فالذين اختاروا الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ اختاروا الانفعال بالإيمان واختاروا التفكير لعقولهم، والتجافى عن راحتهم ورغدهم، واختاروا حرارة الإيمان المتفجرة فى أعماقهم والتى جعلتهم لا يرتاحون ولا يهنأون بشئ فى الدنيا وصوبت أبصارهم إلى الآخرة دفعة واحدة، فضربوا المثل فى الجهاد، وإعمار الأرض، وتحقق الخلافة، ورغبوا من كل ذلك متعة روحية وترويحية أخروية، وهذا الهدف لا ينسجم فى نسق النفوس الضعيفة لاننا نجد فى زماننا هذا بعض من ينتسبون إلى الدعوة الإسلامية ويجاهدون فيها، ولكنهم ما إن ينتهوا من إلقاء درس أو محاضرة إلا ويبحون عن مقابلها المادى، والذى يترجم إلى مطعومات ومبلوسات لهم ولأسرهم، وبعد ذلك يتصورون أنهم يسيرون على درب الأوائل الكرام، وما أوسع بينهما[1].

غير أن هؤلاء المنتسبين إلى الدعوة لا يعرفون معنى انتقال الإنسان إلى خارج ذاته والتغلب على دونية النفس وسكونها.

والذين اختاروا الانفعال بالكفر - معارضة الدعوة - اختاروا القلق لعقولهم، واللفح لقلوبهم، والبأس لأهدافهم، ومع ذلك كانوا يسعون إليها لتحقيقها، إذن فمع وجود الانفعال واختلاف الموضوع المنفعل به والمتجه إليه يبقى الهدف وراء كل انفعال.

(١) البين - الوصل - المعجم الوسيط ج١ والمعنى بعدالمسافة بين الفريقين.

رابعا: تسلسل الأفعال وإتجاهها إلى هدف معين:

التفوق فى الحياة ليسوليد اللحظة، ولا هو ابنا شرعيا للمفاجأة، هذا من ناحية علم النفس البشرية، وسلوك الإنسان العادى يتجه إلى ذلك، فالهدف يثيرفى النفس انفعالا، وهذا الانفعال يثيرفى خارج النفس أفعالا تتوالى فرادى. وهى موحدة المنبع والإتجاه حتى والإتجاه حتى تصل إلى هدفها أو تركن إلى غايتها ومن هنا فالنفس السوية أو الذات المنفعلة ليست هى التى تنتظر المعجزات بالرسل والأنبياء عليهم السلام، ولكن الذات المنفعلة هى الذات المستجيبة التى تعمل فى اطار الخلافة ؛ وبقوة التمكين.

خامسًا: سلوك مختار إلى الهدف مختار:

عند الذاتية المنفعلة الغاية لا تبرر الوسيلة: لأن من طبيعة النفس البشرية أن لها سلوك مختار لأهداف مختارة: وطالما أن الهدف يحدد نوعية السلوك: فإننا لو أخذنا الأوائل فى الإسلام مثلا لهذه القاعدة: فإننا نخرج بنتيجة عظيمة وهى أن سمو الهدف يؤدى إلى طهارة الفعل، وأن الهدف إن كان ساميا والفعل لا يناسبه؛ كان هذا الفرق مخصوما من الإيمان ومحسوبا على مدعيه، ولذلك فطهارة الهدف وسيلة لتقويم سلوك من يتجه إليه، وما عرفت الأمة الإسلامية هذا البون الشاسع بين هدفها ووسيلتها فى الوصول إليه، إلا فى عصور الهزائم وضياع العزة؛ وسيطرة العدو، فإذا نظرت بعمق إلى الذات الإسلامية المعاصرة، وجدت أن جهادها أمانى، وأن أفعالها متعسكرة فى داخلها؛ وأهدفها لا شئ خارجا عن ذاتها ولذاتها.

ومما سبق تتحدد خواص الذاتية المنفعلة ؛ لكن أصدق النماذج لها عبركل العصور صحابة رسول الله ﷺ ؛ وأصدق ما حكى عنهم جاء فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وستعرض لهذه النماذج من الذاتية المنفعلة على الصفحات التالية.

أضواء على نماذج منفعلة

القرآن الكريم:

يلقى القرآن الكريم أضواء ساطعة على ذاتية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم: فيظهر ما طوى فى ثنايا النفس؛ ويترجم بعد ذلك سلوكا طاهرا وأفعالا عزيزة، وهم رضوان الله تعالى عليهم مصابيح الهدى فى ليل البشرية البهيم.

والقرآن الكريم لا يقص على الأجيال المتتابعة من الأمة الإسلامية جوانب عظمة الأولين، لكى تكون مادة للتسلية وسببا للفخر الجاهلى: بل يقص عليهم ذلك لتكون لهم العبرة والأسوة الحسنة.

وإن نظرنا إلى ذاتية الصحابة من خلال على النفس الإسلامى. فإننا سنكتشف أنهم ضربوا أروع الأمثلة فى تجسيد النفس السوية أو بمعنى أكثر وضوحا (النفس القرآنية) أى أن مقاييس القرآن الكريم للنفس البشرية انطبقت عليهم. وفى كثير من الأحيان جاء ذكرهم فى القرآن الكريم كمثل عليا للنفس السوية: الراضية والمرضية على السواء.

وسوف نتناول هنا بعض النماذج التى تلقى أضواء على ذاتيتهم الفاعلة رضوان الله تعالى عليهم لكى نجسد المعانى ونحولها إلى مبان وإلى أشياء ملموسة يصطدم بها من له حديد البصر ومطموس البصيرة ؛ ويسير على هديها من كان قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

النموذج الأول - الوجل

الوجل صورة من صور الإنفعال، وهو من خواص الذاتية المنفعلة ومن أبرز سماتها. وهو حركة إضطراب تعترى الوجدان مصحوبة بنوع من القلق الإيجابى - القلق الذى لا يدفع للعمل فحسب بل يدفع للتجديد فيه.

والوجل عند الصحابة كان خروجا عن الذات وتلاشى فى مراد المحبوب المرهوب سبحانه وتعالى، ووجلهم منه مع حبهم له ومدحه لهم، يجعلنا نقف متفكرين فى أحوالهم خائفين على أنفسنا من سوء المصير، لأننا بأقل الأعمال التى تدل على الطاعة نبوئ أنفسنا منازل المقربين.

وتشرئب أعناقنا إلى عالم الشهود. وتطمح نفوسنا إلى الخلود. مع أننا بمقاييس الأوائل. نخطئ بصدد أنفسنا.

وترتكس أحيانا بهوانا وشغفنا: ولكن البحث فى ذاتيتهم رضوان الله عليهم الفاعلة. ربما ينقذنا مما نحن فيه من غرور.

ولننظر معا قوله تعالى عن الأوائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1].

تستطيع أن تجعل الآية الأولى حالا للآية الثانية. وكذلك الآية الثانية حالا للآية الأولى. إذا استطعت فكاكا من رسوم ابن مالك وإحاطة ابن عقيل، والمعنى على الأول - أنهم وهم فى مسارعتهم للخير قلوبهم وجلة من اى عمل طيب يعلمونه خشية أن يكون خالف المراد بمقياس الحق سبحانهوتعالى، وإن وافق المراد بمقياسهم الخاص، والمعنى على الثانى - أن هؤلاء الذين يفعلون الخيروقلوبهم وجلة، وإنما يفعلون ذلك وهك يسارعون فى الخيرات فهذه شهادة لهم بقبول أعمالهم وجودتها.

وسوف نتأتى هنا ونسترشد ببعض آراء السادة المفسرين حول هاتين الآيتين.

- الأمام ابن كثير:

يقول: - "أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ألا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى شرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والإحتياط، وقد روى الإمام أحمد

(١) من سورة المؤمنون. الآيتان ٦٠. ٦١

عن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت: "يارسول الله الذين يوتون ما أتوا وقلوبهم وجلة". الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عزوجل.

قال: رسول الله ﷺ : "لا يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزوجل"[1].

- الأستاذ/ سيد قطب:

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله تعالى عليه. ويحس آلاءه فى كل نفس وفى كل نبضة. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته. إلى جانب آلاء الله تعالى: كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله تعالى وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله تعالى فى كل شئ من حوله، ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله تعالى وهومقصر فى حقه، لم يوفه حق عبادة، وطاعة، ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرا.

تلك اليقظة التى يفرضها الإسلام على قلب المسلم. والتى يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره فى القلوب، ليست أمرا فوق الطاقة. وليست تكيفا فوق الاستطاعة، انما هى الحساسية الناشئة من الشعور بالله تعالى والإتصال به، ومراقبته فى السر والعلن، وهى فى حدود الطاقة الإنسانية، حين يشرق فيها ذلك النور الوضيئ"[2].

لو نظرت إلى التفسيرين السابقين لألقيت فى فى كل منها نورا يضيئ لك جانبا من جوانب الذاتية المنفعلة بالوجل، فالإمام ابن كثير يعلل للوجل بقوله - "لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشرط الإعطاء" ودلل على ذلك بحديث السيدة عائشة رضوان الله تعالى عليها: ولكن الأستاذ/ سيد قطب يتخذ طريقا مغايرا، فهو يشرح إمكانية هذا الشعور بالوجل وأن كل إنسان يمكنه إذا أراد أن يصل إليه، وانه ليس هدفا خاليا أو فرضيا عبثيا،

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن الكريم جـ٣ ص ٢٤٨ ط دار المعرفة بيروت ١٩٦٩م.

(٢) الأستاذ/ سيد قطب. فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٤٧٢. ٢٤٧٣ ط دار الشروق ١٩٨٧م.

يوقل إن هذه الحالة. - "ليست تكليفا فوق الإستطاعة. إنما هى الحساسية من الشعور بالله تعالى والإتصال به".

وفى النهاية لابد من التركيز على أن الوجل انفعال لا غنى عنه للذاتية المنفعلة ولا يمكن لها أن تنفعل من غير وجل أو توجل من غير انفعال، تلك هى القضية الأولى التى يجب أن تهتم بها مدراسنا ومعاهدنا الإسلامية فى تربية النشئ، توجيه الشبيبة، ويمكن أن يتحول ذلك إلى مقياس نفسى يستفيد به العالم والمتعلم على السواء فليس فى الدنيا شئ يساوى عند المؤمن –الوصول لهذه الوجلة والرجفة الإيمانية، حين تعاين نفسه جلال الله تعالى المبسوط فوق كل شئ.

النموذج الثانى - التضحية

فى كثير من المجتمعات الإسلامية الأن يصعب على بعض الأفراد التضحية بأى شئ فى سبيل إخواته من المسلمين، لأنه بتقوقع فى ذاتية خاملة، ويصعب على البعض الآخر التضحية بإخراج زكاة ماله، بجانب هؤلاء وأولئك هناك من يخرج زكاته ويتصدق بكثير من ماله من غير أن يكونعليه فرض زكاة، ولكن هؤلاء النقر قليل. غير أن فكرة التضحية بالذات وبكل ما تحمل فى جنباتها من آمال وأحلام ليست واردة فى أغلب الأحيان إن لم تكن مستحيلة الآن بين قوم رضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها. وسندس هنا نموذجا للتضحية (الخروج) حبا لله تعالى ولرسوله ﷺ .

قال تعالى حكاية عن بعض صحابة رسول الله ص: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[1].

(١) من سورة التوبة/ ٩٢

هذه الآية تتحدث عن مجموعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين شخصت أبصارهم إلى المثل العليا فى الإسلام وإلى هدف الأمة الكبيرة حتى نسوا حياتهم الدنيوية.

وأقبلوا على الموت قتلا –الشهادة - بفرح وغبطة، أصابهم الحزن العميق الصادق –بشهادة السماء - حين لم تقبل تضحياتهم وردوا عن الموت.

هؤلاء الناس أحدث الإيمان فى قلوبهم تحولا خطيرا فى نسق المشاعر الإنسانية لأنهم - والحالة كذلك - كان من الضرورى أن يعانوا من انفعال الخوف. ويتغلبون عليه بحرارة العاطفة الإنسانية. غير أن الذى حدث هو

أنهم انفعلوا بالحب لله تعالى ولرسوله ﷺ حتى غاب عنهم انفعال الخوف بكل ما يحمل من قلق واضطراب.

- الإمام ابن كثير:

يرى الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية أن هؤلاء النفر من الصحابة لم يعانوا من ألم الخوف ولكنهم عانوا من عاطفة الحب فيقول. "وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه. فقالوا يارسول الله احملنا. فقال لهم. "والله لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد. ولا يجدون نفقة ولا محملا. فلما رأى الله تعالى حرصهم على محبته وصحبة رسوله. أنزل عذرهم فى كتاب"[1].

أعرض الإمام ابن كثير عن هذه الفكرة أنهم حزنوا من أجل ترك الجهاد. ووصل إلى الانفعال الأساسى. وهو انفعال الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ . فقال - «فلما رأى الله تعالى حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتاب»

(١) الامام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٣٨١

وهو بكلماته هذه يركز على الحقيقة الكبرى أن هؤلاء النفر من الصحابة تركوا ذواتهم وتلاشوا فى مراد الله ورسوله ﷺ .

الذوات الخاملة:

ولكن نميز الذات الفاعلة لابد منشرح موقف الذات الخاملة. وهم الذين بالخوالف. وقال الله تعالى فيهم: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

هؤلاء هم الذين دخلوا إلى ذواتهم ولم يخرجوا منها نظروا إلى حياتهم الخاصة وإلى حياة أسرهم كيف يأكلون وكيف يشربون وأى شئ يلبسون. ثم سألوا أنفسهم وهو فى كوة فى النفس مظلمة، من أجل أى شئ يضحون؟!

هؤلاء كانوا من المسلمين الذين يصلون خلف رسول الله ﷺ ويعلمون تضحياته فى سبيل الله تعالى. ويعلمون تضحيات الصحابه رضوان الله عليهم، ومع ذلك لم يضحوا. لماذا؟

لأن ذواتهم كانت خاملة باردة لم تذق حرارة الإيمان فى يوم من الأيام، وهذه النتيجة تقودنا إلى نتيجة أخطر. وهى:

أن الإسلام والإيمان من غير برهان من التضحية على صدقهما لا ينفعان، ولو كان لهم نفع مستقل عن البرهان، لكان الأولى بهذا النفع بعض الذين صاحبوا رسول الله ﷺ خلقه... ومع وضوح هذه الحقيقة انتشرت فى الأمة الإسلامية مقولة من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.

وهذه المقولة إن صحت عن رسول الله ﷺ لابد لها من تأويل ينسجم مع حقائق القرآن الكريم وواقعيات التاريخ الإسلامى، أما التعميم لهذه المقوله –من غير تأويل - من

(١) من سورة التوبة/ ٩٣

قبل العجزة والقاعدين أمر مجهد للغاية - لأن المسلم من المفترض أن يكون صادقا مع الله فى كل شئ، فإذا لم يستطع - لضعف فى ذاته - أن يتفانى فى مراد الله تعالى. فيجب عليه ألا يجعل هذا المراد منسجما مع خياله الضعيف وعزمه الكليل - بمعنى أنه إذا لم يستطع الصعود إلى القمة، فمن سوء الأدب تمنى نزول القمة إليه.

ويرى الأستاذ سيد قطب أن طبيعة الخوالف (الذات الخاملة) طبيعة سدت منافذ الشعور فيها فيقول: "فقد أغلق الله تعالى فيهم منافذ الشعور والعلم، وعطل فيهم أجهزة اللاستقبال والإدراك. بما أرتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركى الحى المتفتح المنطلق الوثاب ولا يؤثر الإنسان السلامة اللذيذة أو الراحة البليدة إلا وقد فرغت من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير فى واقع الحياة، وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ، وتطبع على القلوب والعقول.

والحركة دليل الحياة، ومحرك فى الوقت ذاته للحياة، ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل، وتكشف عن الاستعدادت المخبوءة التى تنتفض عند الحاجة وتدرب الطاقات البشرية على العمل، وتشحذها للتلبية والاستجابة... وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح. يحرمها طلاب الراحة البليدة، والسلامة اللذيذة"[1].

فى الفقرة السابقة يحدد المؤلف صورة الذاتية الخاملة ويعتبرها تلك الذات التى لا تسطيع أن تتخلص من الدوران فى تلك اللذة والمتعة الآتية، ولا تستطيع أن تستشرف ما وراء المادة وأن تبذل ما ينفعها فى الآجلة وينطبق عليها قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

(١) سيد قطب فى ظلال القرآن جـ٣ من ١٩٦٥.

(٢) من سورة الإنسان الآية/ ٢٧.

ومن هنا فالمسألة لا تقف عند أصحاب هذه الذات عند الخمول والقعود بل تتعدى إلى حب العاجلة بدلا من التضحية من أجل حب الله تعالى ورسوله.

النموذج الثالث - الإيثار

والإيثار هو الذى يحدد علاقة الإنسان الفرد بالآخرة، وهو الذى يدل من قريب على أن الذات التى تؤثر على نفسها هى تلك الذات المنفعلة بالإيمان والفاعلة للإيثار ولقد ضرب صحابة رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى الإيثار وتقديم الغير على أنفسهم، حتى مدحهم الحق سبحانه وتعالى، وسجل لهم هذا الموقف فى القرآن الكريم.

ولا تحسبن الإيثار ضرب من ضروب الكرم، التى يتحلى به بعض الناس، إن الإيثار حالة نفسية تدل دلالة واضحة على أن النفس المؤثرة نفس تشبعت بالإيمان وتشعب الإيمان فى أرجائها، حتى انفكت من قيد الداخل النفسى المظلم، إلى الخارج بكل ما يتطلب من عطاء، حتى غدت هذه النفس تؤثر على نفسها حتى فى حالة الخصاصة وهى الحاجة الشديدة، أو الحاجة الملحة، وإن شأت قل المهلكة.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

هذه الآيه تبرئ الأنصار من شبهة أن نفوسهم تغيرت من عطاء المهاجرين، وثبت لهم أنهم بيعدون عن هذه الشبهة، لأن نفوسهم مؤثرة وليست شحيحة، وأنهم لا ينظرون إلى عطاء المهاجرين بل يؤثرونهم على أنفسهم فى حالة الشدة والحاجة ووهذه هى طبيعة الذات المنفعلة التى آمنت بربها وصدقت بكلماته.

(١) من سورة الحشر - الآية /٩.

يقول صاحب الميزان: - [والمعنى: يقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقروحاجة، وهذه الخصيصية أعزر وأبلغ من مدحهم من الخصيصية السابقة، فالكلام فى معنى الإضراب كأنه قيل لا يطمحون النظر فيما بأيدى المهاجرين، بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم فى عين الفقروالحاجة][1].

أى أنه ليس مجتمع طمع وأثره، بل مجتمع عطاء وإيثاره.

وعن صورة أخرى من عطائهم يقول الله تعالى: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا"[2].

فهذه الآيات تبدى صورة الذات المنفعلة واضحة من غيرلبس، إنهم يطعمون الطعام –مع الحاجة إليه - للفقيروالمسكين والأسير.

وتتميزمعالم هذه الذاتية المنفعلة المؤثرة من وجوه: -

١ - إطعام الطعام مع الحاجة الشديدة إليه.

٢ - إطعامة للفقير والمسكين والعادة أن تجهز الموائد للأغنياء وأصحاب المناصب، يحدث هذا الآن بين أعداد متزايدة من المسلمين.

٣ - إطعام الأسيرالمشرك مع وجود العاطفة الدينية، ولكن تلاشت فى هدف الإسلام الأعلى.

٤ - أنهم مع هذا العطاء الممدوح من الحق سبحانه وتعالى تجدهم أصحاب شفافية وخوف ووجل من الله تعالى، لأنهم لا يعملون على وجهالدقة هل تصادف أفعالهم رضا. أم أنها تقع فى منطقة بعيدة عن الرضا منحرفة عن المراد.

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائى الميزان فى تفسيرالقرآن ج ١٩ ص ٢٠٦ ط مؤسسة الأعلمى - ببيروت ١٩٧٤.

(٢) من سورة الإنسان – الآيات من ٨ إلى ١٠.

وهذه النقطة الأخيرة تفتح بابا كبيرا فى طبيعة الإيمان المقبول فهؤلاء مع عطائهم المخلص والمستخلص من كل الرياء والمنفعة والذى يصادف رضا الله تعالى ومدحة يخافون "يوما عبوسا قمطريرا".

وبين المسلمين الآن من لا يعطى حتى فرض الزكاة كاملا ومن يؤثر نفسه بكل خير وكأن الحياة لم تخلق إلا له وحده، ومع ذلك يزرف دموعها فى بعض المناسبات الدينية، ويحدث الناس عن رؤى وحالات تدل على كثرة الوجد وشدة القبول.

إذن لابد من بحث علمى دينى يعاود تقيم إيمان المتأخرين على ضوء هذا الصرح الشامخ الطاهر من إيمان المتقدمين، أما أن يخاف سيدنا أبو بكر من مكر الله تعالى وله قدم فى الجنة، وبعضنا لا يخاف من مكر الله تعالى وله أقدام فى جهنم، فذلك هو أعجب الإيمان.

يرى الشيخ عبدالكريم الخطيب - أن (من صفات هؤلاء الأبرار أنهم يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة، فالطعام الذى عليه قوام الحياة وملاكها، لا يؤثرون أنفسهم به، بل يجعلون لمن يعوزهم هذا الطعام نصيبا منه، ولو كانوا أنفسهم فى أشد الحاجة إليه.

وهذا القول من الأبرار ليس بلسان المقال، يواجهون به من أطمعوهم فإنهم لو فعلوا لكان ذلك من باب المن والأذى، الذى يحبط الأعمال، وانعقدت عليه نياتهم)[1](١).

وهذه الفكرة - فكرة لسان الحال تعتبر استنتاجا طيبا للمفسر، لأنها داخلة ضمن انفعالية هذه الذوات الكريمة، وسمة أساسية لها.

- الأستاذ سيد قطب:

يتحدث صاحب الظلال عن انفعالية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بقوله: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)

وهى - أى الآيات تصور شعور البر والعطف والخير ممثلا فى إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه.

(١) الشيخ عبدالكريم الخطيب. التفسير القرآنى للقرآن جـ ٢٩ ص ١٣٦٣. ١٣٦٤ ط دار الفكر العربى.

فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: أنها تحب الطعام الذى تعظمه للضعاف المجاريح على اختلاف أنواعهم: إلا أن تكون فى حاجة هى إلى هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحاويج.

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج، ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف، فلا تظل فى هذه الصورة البدائية. المباشرة، إلا الذى يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب، وحيوية العاطفة، والرغبة فى الخير ابتغاء وجه الله تعالى والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة.

وإن الإسلام عقيدة قلوب، ومنهج تربية لهذه القلوب، والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من أخواتهفتفى بشطرى التربية التى يقصد إليها هذا الدين... ومن ثم كان هذا التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم.

ومن النقاط المهمة التى أثارها المؤلف - رحمة الله تعالى - فيما يتعلق بانفعالية ذوات الصحابة - حساسية القلوب وحيوية العاطفة، والإيمان الصحيح لا يقوم فى القولب مثمرا إلا إذا تشبع بالحساسية القلبية، والحيوية العاطفية، وخرجت منه حرارة الإيمان تترجم أقوالا وأفعالا أما الإيمان بمعنى التصديق فقط. فهو وإن قبل عند البعض إلا أنه لا ينشئ مجدا الأمة، ولايشيد صرحا لدين.

النموذج الرابع - التفكير

والتفكير: هو الحالة الذهنية المتعاملة عند الذات المنفعلة بكل ذات لا تفكر فى ذات الله تعالى وصفاته كما فعل أهل الكلام بعد عصر الأوائل، ولكنها تفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، إنها لا تفكر فى المحسوسات والملموسات ولكنه تفكر فى دقتها، وتسبيح بحمد خالقها، إنه تفكر الذات المنفعلة، وهذا الفكر لا يجلب للذات الاستعلاء بمعرفة المقدمات والنتائج كما يفعل أصحاب الفكر العقيم، ولكنه فكر يزيد النفس خشوعا وخضوعا، ويأخذ بيدها إلى أعماق الإيمان البعيدة إنه فكر منتج، إنه فكر يتبعه ذكر.

ويقول الله تعالى فى أصحاب الذاتالمتفكرة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

يقول الإمام محمد عبده: وهذه الآيات تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجودة فكر فأما علماء الهيئة فإنهم يعرفون من نظامها مايدهش العقل. وأما شائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة، وما فيها من الحسن والروعة. وكل عقل يتمكن من الإستفادة من النظر فى هذه الآيات. والإستدلال بها على قدرة الله تعالى وحكمته.

ويقول الشيخ رشيد رضا: [قد يتفكر المرء فى عجائب السموات والأرض وأسرار ما فيهما من الإتقان والإبداع والمنافع الدالة على العلم المحيط والحكمة البالغة، والنعم السابغة والقدر التامة. وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم الذى خلق ذلك فى أبدع نظام.

إن الفكر وحده وإن كان مفيدا، لا تكون فائدته إلا بالفكر. فياطوبى لمن جمع بين الآمرين واستمتع بهاتين اللذتين][2]

وفى التفسير الوسيط: إن فى خلق السموات والأرض وما فيه من الإبداع والإحكام والحكم والمنافع، وفى اختلاف الليل والنهار، لعلامات واضحات لأصحاب العقول على وجود رب لهذا الكون. واحد عظيم. وأدلة شاهدات له بكل كمال، وتنزهه عن كل نقص. وأولوا الألباب - هؤلاء - هم الذين يتذكرون الله تعالى فى كل حال، بعد أن أثرت آياته فى نفوسهم، وهدت إلى معرفته وجعلتهم يجدون التفكر فى خلق السموات ليزدادوا معرفة بخالقها، وإيمانا واثقا بمبدعها. وخشية من التقصير فى واجبات مدبرها[3].

---

(١) من سورة آل عمران الإيتان ١٩٠، ١٩١

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا تفسير المنار جـ ٤ ص ٢٤٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٣) التفسير الوسيط. إعداد لجنة من علماء الأزهر الشريف جـ ٤ ص ٧٢٩ طالهيئة لشئون المطابع الأميرية طبعة ثانية ١٩٧٣م.

يلاحظ على التفاسير السابقة أنها تشرح الآيتين على انهما جمل إنشائية لوصف حال من يفعل هكذا [وقد أجاد أصحاب التفاسير فى ذلك ورابطوا - مبدعين - الفكر بالذكر، وبينوا طريقة الإنفعال بالفكر. غير أننى أرى أن الآيتين السابقتين تحملان معنى الخبر، وأن ذلك كان حال بعض صحابة رسول الله ص، الذين كانوا ينظرون إلى الكون على أنه كتاب الهداية الثانى لهم.

وكانت حرارة الإيمان تدفعهم إلى رؤية قدرة الصانع فى كل صنعة، ليست رؤية حسية، ولكنها رؤية شعورية تدفع صاحبها إلى الذكر الدائم وفى القرآن الكريم والسنة الشريفة ما يؤكد هذه الحقيقة: أن ما جاء فى الآيتين خبرا وليس إنشاء.

ويرى الإمام ابن كثير: أن ذلك من باب الخبر فيقول: [وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وشرعه وقدره وآياته فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

ومدح عباده المؤمنين « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض". قائلين « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» – أى ما خلقت هذا الشئ عبثا][2]

فهو يرى أن هذا إخبار عن حالة المؤمنين أثناء نزول القرآن وهم الصحابة رضوان الله عليهم، ويؤخذ ذلك من قوله: (ومدح عباده المؤمنين).

ويركز صاحب الظلال على انفعال الذوات المؤمنة بالتفكير فيقول: [وأولوا الألباب - أولوا الإدراك الصحيح - يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله تعالى الكونية، ولا يقيمون

(١) من سورة يوسف. الآيتان ١٠٥، ١٠٦

(٢) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم جـ ١ ﷺ ٤٣٩ دار المعرفة ببيروت.

الحواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله تعالى بقلوبهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم. فتتفتح بصائرهم وتشف مداركهم وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله تعالى إياه، وتدرك غاية وعلة نشأته، وقوام فطرته، بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى، نواميس هذا الوجود...

ومشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار... لو فتحنا له بصائر وإدراكاتنا، لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة، لو استنقذنا حسنا من همود الإلف[1] وخمود التكرار لارتشعت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق وراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر...

والسياق القرآنى هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئهااشتقبال مشهد السموات والأرض واختلاف الليل والنهارفى مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا][2].

فى الفقرات السابقة يحاول المؤلف –رحمه الله تعالى - رسم الخط النفسى لهذه الذوات المنفعلات. وبهذه الفقرات ننهى هذا التصويرلجانب من سلوك الذاتية المنفعلة فى القرآن الكريم.

(١) الإلف - التمرد.

(٢) الأستاذ/ سيد قطب. فى ظلال القرآن جـ١ ﷺ ٥٤٤. ط دار الشروق.

الفصل الثانى

الجانب العلمى لانفعال الذات

قبل ان نقدم الجانب العلمى - السلوك النفسى المترجم - عند الأوائل، نذكر بأننا قدمنا فى الفصل السابق[1] نبذة عن الذاتية المنفعلة، ولكن فى جانب واحد من الانفعال، هو جانب التضحية بالنفس إنفعالا بالذاتية الفاعلة قبل ان يظهر الاسلام وتكتمل أركان الإيمان وقدمت الذاتية المنفعلة هناك كوعاء لتأثير الذاتية، ولكنها تقدم هنا كشخصية نفسية مستقلة شاخصة. لذلك لزم التنبية.

للذاتية المنفعلة شخوصها فى حركة الدعوة الإسلامية قديما وحديثا، ولها أبعادها ومعالمها، وسنحاول أن نترسم ذلك عند الأوائل فقد كان انفعالهم هادرا وشخوصهم بارزة وهم الذين آمنو فى فجر الإيمان، وأسلموا قبل أن يكتمل بناء الإسلام، إن الذين ضحوا من أجل الإسلام كثيرون وهم على طريق الدعوة الإسلامية أعلام هادية، ونجوم تضيئ دروب الدعوة، تلهم الرشد للدعاة، وهم عنوان على الدعوة الإسلامية أبقى من الزمان، وأقوى من الحياة، لأنها رسالة من صانع الحياة ومؤقت الزمان][2].

وسوف نتناول بعض جوانب الذاتية المنفعلة التى توضح هويتها النفسية وتشير إلى ماهيتها الإيمانية وهذه بعض الجوانب نوردها كما يلى:

---

(١) الذاتية الفاعلة: بحث نشر للمؤلف فى حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا عام ١٩٩٠م. وجاء فقرة الذاتية المنفعلة فى ص ٦٢٠

(٢) د/ محمد محمد أبوزيد. حولية كلية أصول الدين بطنطا ص ٦٢٠

جوانب إيجابية للذاتية المنفعلة

الجانب الأول:

وتحمل الشدائد فى الدعوة إلى الله تعالى هو لون من الاختبارات اللازمة لتمحيص الإيمان، ثم الدلالة عليه بعد ذلك، ثم الإشارة إلى صدقه فى النهاية، ولعل القاسم المشترك بين صحابة رسول الله ﷺ، هو تحملهم جميعا الشدائد والمعاناه فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى، لقد بين القرآن الكرم أن قول الإنسان إنى مؤمن: دعوى، يدخل الإنسان بعدها فى مرحلة الفتنة والأختبار، فقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

إذن الفتنة فى الدين، سنة ثابتة من سنن الحق سبحاه وتعالى. وهى تمحص الأوائل من معتنقى الأديان السماوية، ومحصت كذلك المؤمنين من أتباع سيدنا محمد ﷺ .

غير أن الجدير بالبحث هنا هو تلك الحالة النفسية التى تعقب فترة تحمل الشدة وهى الحالة التى تدفع صاحبها إلى الإيمان.

تلك هى حالة الانفعال بالإيمان، أو حرارة الإيمان التى تنصهر فيها المعاناة والشدائد، وتصهر صاحبها ليخرج ممن الشدة والمعاناة كيانا نفسيا آخر.

ومن الذين انفعلوا بالدعوة الإسلامية، وتحملوا الشدائد والمعاناة فى سبيلها الصديق أبو بكر - رضى الله عنه - وسوف نورد هنا بعض النماذج من تحمله الشدائد رضى الله عنه.

١ - الصديق أبو بكر - رضى الله تعالى عنه

(أ) ألح على رسول الله ﷺ فى إظهار دعوته، ومازال به حتى قبل ذلك، وذهبا ومعهما جماعة من المسلمين إلى البيت الحرام وقام سيدنا أبو بكر خطيبا بين الناس - أول خطيب

(١) من سورة العنكبوت. الآيات ١ - ٣.

دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ . وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين، فضربوا فى نواحى المسجد ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة ابن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين. ويحرقها لوجهه، ونزل على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين. عن أبى بكر وحملت بنو تميم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته.

فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله؟

فسموا منه بألسنتهم وعزلوه (ثم قاموا وقالوا لأمه. أم الخير، أنظرى أن تطعيمه شيئا أو تسقيه إياه وكلما حلت به ألحت عليه وجعل يقول. ما فعل رسول الله ﷺ ؟

فقالت: والله مالى علم بصاحبك. فقال: أذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسألها هنخ. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله؟

فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله. وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى أبنك.

قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا (مريضا لازمه المرض).

فدنت أم جميل وأعلنت بالصباح **وقالت**: والله، إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ ؟

قالت هذه أمك تسمع.

قال: فلا شئ عليك منها.

قالت: سالم صالح.

قال: أين هو؟

قالت: فى دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله على أن لا أذيق طعاما ولا أشرب شرابا، أو آتى رسول الله ﷺ . فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، به يتكئ عليها، حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ فقبله، - وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله ليس بى بأس إلا مانال الفاسق من وجهى، وهذه أمى برة بولدها وانت مبارك فأدعها إلى الله وادع الله لها - عسى الله أن يستنقذها بك من النار - قال - فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت][1].

فى هذا النص تبدوا عناصر الانفعال الإيمانى واضحة، وسوف نتحدث عنها بشئ من الإيجاز. وهى مبسوطة فى النص هكذا.

- فما فعل رسول الله ﷺ؟

- لله على أن أذوق طعاما ولا شرابا أو أتى رسول الله ﷺ .

- فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله.

- وأكب عليه المسلمين.

- فأدعها إلى الله وادع الله لها.

تحليل النص:

يقوم هذا التحليل على المرتكز النفسى أساسا، لذلك فهو يعالج النص من خلال الظروف النفسية المحيطة بالحادثة، ويبرز ما فيه من انفعالات[2] إيجابية، وسوف نبتعد عن السرد التاريخى، أو الحدثى للنص، ونلتزم بمناقشة إإيجابياته الانفعالية فقط.

(١) محمد يوسف الكاندهلوى. حياة الصحابة جـ١ ص ٢٥٩، ٢٦٠ ط دار التراث ببيروت

(٢) - «فأكب عليه رسول الله ص ".

ماذا فعل رسول الله؟

هذا السؤال قصير كما ترى وقد خلا من الصلاة على رسول الله ﷺ لماذا؟

لأن هذا السؤال كان عنوانا على حياة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بل كان هو الحياة حين عادت، بل كان هو مضمون الحياة والموت بالنسبة له رضى اللع تعالى عنه لأنهم (حملوه فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته).

هذه حقيقة لأمراء فيها أنه رجل بين الحياة والموت، وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب. فتكلم آخر النهار فقال ما فعل رسول الله؟

بنو تميم يكلمون أبا بكر ليقفوا على حقيقة حالته، وهو لا يستطيع أن يرد عليهم يوما كاملا، فإذا عادت إليه الروح سأل عما هو أعز من الروح سأل عن رسول ﷺ .

هذه فى معجزة الإيمان، ومظهر حرارة الإيمان، إن الذى يخشى عليه من الموت، حين يعود للحياة، لابد أن يتوجع من الألم الذى غيبه عن الحياة ابتداء، لكن رسول الله ﷺ كان محور حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فكانت حياتهم مظهرا لحبه ص، وترجمته واقعية لما جاء به، لذلك فمحاولة استكفاء حقيقة إيمانهم، هى فى ذات الوقت محاولة لرسم الطريق لنا، إذا أردنا نعيش مثل إيمانهم أو ما يقرب من ذلك، أو إذا أردنا أن نضع مقياسا لإيماننا المتواضع أحيانا، والمتضع فى كثير من الأحيان.

- ما فعل رسول الله ﷺ ؟

حين عادت الحياة إلى سسيدنا أبى بكر محورها فى سؤال ما فعل رسول الله؟ وحين عادت إليه الحياة بزيادة قليلة عن العودة الأولى، جعل هذه الزيادة تحبة لرسول الله ﷺ . فصلى عليه. لم يسأل عن مال، أوولد، أو عائلة، أو قبيلة، ولم يسأل حتى عن نفسه، هل سيموت أم لا، بل جعل إمتداد حياته عنوانا لحبه لروسول الله ﷺ .

- لله على أن لا أذوق طعاما ولا شراب أو آتى رسول الله ﷺ .

أرأيت إلى رجل غاب عن الدنيا مغشيا عليه أفاق وعاد للحياة أغلق منافذها المرئية على نفسه.

إنه سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه، حين عاد للحياة رفض الطعام والشراب - وهمامن ضرورات الحياة - حتى ياتى إلى رسول الله ص، بأى تفسير يكون هذا الموقف، لا يفسر هذا الموقف فى ضوء واقعية المسلمين اليوم، ولا يفسر بمعزل عن دائرة الذاتية المنفعلة هذه الذاتية التى انفعلت بالإيمان حتى أصبح لها زادا أؤلياً لا غنى عنه بغيره، ويستغنى به عن كثير.

هذه الذاتية المنفعلة التى أمتزج فيها الإيمان بالله تعالى وبحبه وحب رسول الله ص، إذا أردنا أن نوضح هذه الفكرة للذهنية الحاضرة، فإننا نقول:

إن كثيرا من الذين يمارسون الدعوة يفرقون بين معطيات الإيمان وواجباته، وبين الإنفعال به والعيش فيه، فبعضهم يطلب من الناس ملائكية الفعل والتوجيه، ويصدر – هو نفسه - فى أفعاله وعلاقاته بالآخرين عن قلب قاس ليس عيبه انه لا يرحم، بل خطيئته أنه يسر بآلام الآخرين، هذه النوعية من الدعاة - المدعين - تبلى سرائرها وينكشف ما فيها من ظلمة حين توزن بفاعلية الأولين، وهذه هو الدرس الذى يجب أن نخرج به ظلمة حين توزن بفاعلية الأولين. وهذا هو الدرس الذى يجب أن نخرج به من دراستنا للذاتية الفاعلة عن السابقين، لقد سبقونا بالإيمان وسابقونا إلى سنامه.

لقد صهرتهم حرارة الإيمان جميعا حتى أصبحوا ذاتا إيمانية واحدة مع تعدد الشخوص على صفحة الحياة، فها هو رسول الله ﷺ يقبل على أبى بكر رضى الله تعالى عنه مقبلا، ويقبل بعده المسلمون.

أنها عودة الحبيب للحبيب، إنه لقاء الأرواح المؤتلفة. إنها أرواح صهرها الإيمان، ووحدها المصير.

- «فأدعها إلى الله وادع الله لها».

وكماذابت أرواحهم فى الإيمان نجدت عواطفهم فى الدعوةالإسلامية. فبعد هذا اللقاء البهيج. لهم يغفل سيدنا أبو بكر حق الدعوة عليه، ومردود إيمان الآخرين إليه فطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو أمه إلى الإيمان. وأن يدعو الله تعالى لها. هو بذلك يؤكد إنفعال بالإيمان. حتى أصبح لا يرى فى الحياة غيره.

وفى نهاية تحليل هذا الموقف الإيمانى. وبيان إنفعالية الذات بالإيمان نرى أن هذا الإيمان هو الحرى بدفع الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ولذلك فالأولون سادوا وقادوا. وإذا حاء فى التاريخ عنهم غير ذلك. فهى نزاعات غير حقيقية، سجلها عليهم من لم يعاصروهم ولم يذوقوا مثل إيمانهم يوما ما، وكثير مما كتب عن الأولين فيه ظلم لهم، ويشبه إلى حد كبير وصف الأعمى لحديقة غنا، بعد أن يلمس أشجارها وأعصابها. وربما أصابه الشوك من بعض الزهور، أو شعر بغلطة فى بعض الأغصان فعاد يصف ما لمسه بيده، وصورة بعقله بعيدة عن روعة الحقيقة وجمالها الآخاذ.

٢ - آل ياسر - رضى الله تعالى عنهم

ومن الذين تحملوا الشدائد فى الدعوة آل ياسر، وقد قدمنا ترجمة لكفاحهم الشدائد فى البحث الأول –الذاتية الفاعلة - تحت مضمون: لماذا ضحوا؟

وكانت الإجابة أنهم ضحوا بتأثير ذاتية رسول الله ص، ولكننا هنا سنذكر لمحة عن انفعالهم بالإيمان، ولأنه لا يمكن لباحث فى الذاتية المنفعلة أن يمر على ذكراهم دون أن يستنشق عبيرهم ويستضيئ بنورهم، ويأمل أن يكون له مثل إيمانهم. أخرج ابن مسعود

عن عثمان رضى الله تعالى عنه: [بينما أنا امشى مع رسول الله ﷺ بالبطحاء إذا بعمار وأبيه وأمه يعذبون فى الشمس ليرتدوا عن الإسلام، فقال أبو عمار]:

يارسول: آلدهر هكذا؟ فقال: صبرا آل ياسر. اللهم اغفر لآل ياسر. وقد فعلت[1].

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأم عمار. وهم يؤذون فى الله تعالى، فقال لهم: صبرا ياآل ياسر فإن موعدكم الجنة وزاد بعض الرواة. عبدالله بن ياسر ممن كانوا يعذبون. وقال راو آخر. وطعن أبو جهل سمية فى قلبها فماتت ومات ياسر فى العذاب، ورمى عبد الله فسقط].[2]

ويأتى رسول الله ﷺ .

هذه صورة من بعض المراجع عن انفعالية هؤلاء الأوائل بالإيمان. إن العذاب يشتد على آل ياسر. ويأتى رسول الله ص، ويسأله ياسر: «آلدهر كله؟» أى هل سنعذب الدهر كله، فيرد عليه بأن يطلب منه مزيدا من الصبر على مزيد من العذاب، هذه الظروف القاسية العنيفة تضع إيمان ياسر وأسرته فى كفة وعلى الكفة الأخرى من الميزان يقبع الموت متسربلا بالأحزان، إنه إيمان يوزن بالموت بعد مؤلمة من العذاب فما الذى يدفع للأمام فى طريق الإيمان؟ وما هو الشئ الذى يخفف عنهم آلامهم، ويقوى آمالهم؟ - وواقعيا لا أمل لهم فى الحياة - ولكن طموحهميتجه للآخرة. إن الذى يفعل بهم هذا من داخلهم هو انفعالية الإيمان، لأنهم ذوات منفعلة تنبعث حرارة الإيمان من داخلهم، فتسطع نورا وقوة وتحملا.

وتستطيع أن توحد هنا بين تحمل أبى بكر للعذاب وتحمل آل يار والجميع مشرق الوجه بنور الله تعالى والأمل فى عفوه وفى أريحية القبول.

---

(١) ابن سعد. الطبقات الكبرى جـ٣ ص ١١٧ والنص منقول من مستند الإمام أحمد جـ٢ ص ٢ والإصابة جـ٨ ص ١٤٤

(٢) الإصابة جـ٣ ص ٦٤٧.

٣ - عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه

وعلى نفس الطريق - طريق التجاوب والانفعال بالإيمان طريق الإشتغال بومضات الفرقان. - سارسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، كان الأوائل لا يكتفون بالإيمان برسالة الإسلام، المتمثلة فى أركانه. وفى محددات الإيمان بل كانوا يشعرون بما فى رسالة الإسلام من من»دعوية» محركة ومتحركة، كان هذا الشعور يتحول لديهم إلى قوة دافعة، وهمية رافعة. كانوا يشعرون أن الدعوة إلى الإسلام هى فحوى رسالته، لأنها رسال عالمية، لا تحقق هدفها بإيمان بعض القبائل، أو بعض البلاد، أو بعض القارات فى نهاية المطاف.

وتحول التبليغ عندهم إلى حلم، وأمل، وعمل، وتضحية، وفداء.وها هو عمر بن الخطاب يلقى بنفسه بين جحافل المشتركين ويخبرهم أنه أسلم، وهو يعلم أنه بهذا يدمر أفئدتهم، ويسفه أحلامهم، ويبدد آمالهم. ويعلم أيضا أنه سيضرب ويعذب من الكثرة المتربصة حول البيت الحرام. وينقلابن اسحاق عن عمر –رضى الله تعالى عنه - لما أسلم عمر رضى الله تعالى عنه. قال: وأى قريش أنقل للحديث؟.

فقبل له جميل بن معمر الجمحى فغدا عليه. قال عبدالله وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت –حتى جاءهفقال له أعملت يا جميل: إنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ﷺ ؟ قال. فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعته أنا، حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته. يا معشر قريش. وهم فى أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. قال يقول عمر من خلفه: كذب. ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله. وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال وطلح - أى أعيا - فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدالكم، فأحلف بالله، أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا[1].

(١) محمد يوسف الكاندهلوى. حياة الصحابة جـ١ ص٢٦٥، ٢٦٦ ورواه ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحاق عن ابن عمر جـ١ ص ٢٣٧ ط المكتبة التوفيقية بمصر.

تحليل النص:

فى النص السابق من الفاعليات الإيمانية، أو انفعالات الإيمان، ما يلى:

١ - قال: أى قريش أنقل للحديث؟

٢ - يقول من خلفه: كذب:

٣ - ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله الا الله، وأن محمد رسول الله.

٤ - فما برح يقاتلون حتى قامت الشمس على رؤوسهم.

٥ - وهو يقول افعلوا ما بدالكم

٦ - فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتوها لنا.

أى قريش أنقل للحديث:

إنه سؤال ينم عن كثير من الإستعداد للبذل والعطاء، لقد كانت قريش هى جزيرة العرب، ومحاولة إعلامها بالرسالة تمثل إيذانها بالحرب، ولكن حرارة الإيمان، ما فتئت تدفع ابن الخطاب للبحث عن أقوى وسيلة لإعلامها، لقد كان جميل بن معمر الجمحى يمثل أقوى أجهزة الإعلام فى قريش، ويستطيع أن يحيطها علما بأى خبر فى لحظات ومن يقرأ النص يدرك ذلك من قول عبدالله بن عمر.

فوالله ما راجعه حتى قام يجرر رداءه - غير أن البحث هنا لا يعتمد لا يعتمد على قوة ما سيترتب على نشر هذا الخبر، بعد أن يقع على آذان قريش مثل الصاعقة فيجعلها مقسمة المشاعر بين ذهول المصعوق وجفو المطرود.

يقول من خلفه: كذب: استخدم سيدنا عمر بن الخطاب، جميل بن معمر لإعلام المشركين بإسلام عمر، ولكنه إعلامها أنه صبأ، فكان يقول من خلفه كذب، لأنه يريد أن تصل الرسالة الإعلامية كما أرادها قوية صادقة واضحة.

ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

هذه هى الرسالة الصادقة الصاعقة التى أرادها الله أن تصل إلى قريش وكان يعلم أنها ستفجر ثورة فى النفوس الموحشة بالكفر، المتوحشة للقتل.

فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم: هذه هى النتيجة التى توقعها وانتظرها ليجعل منها عنوانا على صدق إيمانه، وفاعلية إسلامه. إنه ذاهب إلى هذا العذاب برؤية واضحة وعزم صادق. وكأن عذابه دليل صدق الرسالة التى أرادها أن تصل. فهى رسالة مدموغة بدمه، ومصدق عليها بعناية.

وللذين يعملون فى حقل الدعوة فائدة من هذه الحادثة: أن الحديث عن روحانيات الإسلام وإشاعات الإيمان من غير دليل من الصدق والزهد، حديث مردود على قائلة، ولكن عمر بن الخطاب أراد أن يبلغ الرسالة، ويبلغ فى ذات الوقت الخلفيات الإيمانية لهذه الرسالة، وكان له ما أراد. وتحقق له ما تمنى.

وهو يقول: افعلوا ما بدالكم:

لقد وصل معهم إلى نهاية التحدى وبين لهم أن الحياة نفسها لا تساوى شيئا بجانب الإيمان وأبرز البرهنة عليه بدلائل اليقين.

- فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. إنه هنا يسكنه المستقبل ويستكشفه، ليعلمهم بمصير الصراع بين الكفر والإيمان بعد أن نقل إليهم الإعلام بالرسالة عن طريق جميل بن معمر. والنظر للمستقبل بهذا الاستكشاف اليقينى، واليقينى المستكشف يعد لازمة من لاوازم الإيمان، وخصلة مبدئية للأوائل. فالإيمان بطبيعته تسليم بغيب غير مقدور على رؤيته، ورؤيته غيب والاستعداد للتعامل معه، قبل أن تأتى بكثير. فالأول غيب الآخرة، والثانى غيب الدنيا الذى يعتبر مرئيا غند الأفذاذ من البشر، وكان من أجل صحابة رسول الله ﷺ - من هؤلاء:

٤ - عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه

عن محمد بن أبراهيم التميمى قال: (لما أسلم عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطا وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى «دين محدث؟ والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان: والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه)[١].

هذا هو دين النوريين عثمان بن عفان رضى الله عنه يربط، ويوثق ربطه عمه الحكم، ومع ذلك لا تلين له قناة. إنها فاعلية الإيمان التى استشعرها الحكم، ففك وثاقه، ولعل وثاق الحكم هذا كان رمزا لمقاومة الجاهلية، ولكنه كان رمزا لضعفها فى مواجهة الإيمان.

الجانب الثانى: التضحية بالنفس والنفيس

١ - صهيب بن سنان - رضى الله تعالى عنه:

من بدايات التاريخ الإنسانى، والمال يلعب دورا كبيرا فى حياة الإنسان حتى غدا شقيق الروح وسامقة الآمال. وتحدث عنه العزيز الحكيم فى القرآن الكريم حديثا يبين خطره ويظهر أمره. فقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[٣].

فى هاتين الايتين يبدو المال قسيم الولد فى العاطفة الإنسانية. ولقد تعرض صهيب بن سنان - رضى الله تعالى عنه - لموقف غريب عند هجرته من غير مال، أو يبقى فى مكانه مع ماله.

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج ٣ ص ٣٧

(٢) من سورة الكهف الآية/ ٤٣

(٣) من سورة التغابن الآية/١٧

وقسوة هذا الموقف أن المال لم يجعل فى مواجهة الإيمان، وإلا لكان صهيب قد اختار الإيمان من غير تردد، ولكنه جعل فى مواجهة رسول الله – ﷺ - فى المدينة. وهذا أمر لم يدرك على الفور فإنه يدرك بعد حين، ولكن صهيبا بإنفعاله بالإيمان رأى أن تأخره عن رسول الله – ﷺ - لا يجوز مهما كان الثمين.

والعبرة فى هذا الموقف أن إيمان صهيب لو لم يكن حيا حارا متدفقا متجاوبا منفعلا وفاعلا فى ذات الوقت، لاختار صهيب البقاء مع المال حتى تحين فرصة مناسبة للخروج من مكة ومن جو الشرك فيها. قبل الفتح العظيم.

وتُردد كتب التاريخ صدى هجرة صهيب بأريج يملأ عبقه مساحة كبيرة عرضها المكان وطولها الزمان كله، فيقول صهيب عن نفسه: [فخرجت ولحقنى منهم ناس بعدما سرت، يريدون ليردونى فقلت لهم إن أعطتيكم أواقى من ذهب أتخلوا سبيلى وتوفون لى.

ففعلوا فتبعتهم إلى مكة فقلت احفروا اسكفة الباب[1] فإنه بها أواقى، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحليتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله – ﷺ - بقباء قبل أن يتحول منها. فلما رآنى قال: يا أبا يحيى ربح البيع، فقلت يارسول الله ما سبقنى إليك أحد، وما أخبرك جبريل عليه السلام][2].

هذه الرواية تظهر أن هذه الرواية تظهر أن صهيبا افتدى فاعليته بالمال من أول لحظة من غير مقاومة، غير أن ابن سعد فى طبقاته يورد نصا آخر يوضح أن ذلك تم بعد مقاومة فيقول فى ج ١ ﷺ ١٦٣.

(إن صهيبا - رضى الله تعالى عنه - أقبل مهاجرا نحو النبى – ﷺ - فتبعه نفر من قريش مشركون فنزل فانتشل[3]. كنانته، فقال: قد علمتم يا معشر قريش أنى أرماكم رجلا

(١) الخشبة التى تحت الباب. المعجم الوسيط ج١.

(٢) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص ١٧٣ وأبو نعيم فى الحلية ج١ ص ٥٢ وابن سعد فى الطبقات ج١ ص ١٦٢.

(٣) فانتشل كنانته. أخرج ما فيها. المعجم الوسيط ج٢

بسهم، وأيم الله لا تضعون إلى حتى أرميكم بكل سهم فى كنانتى، ثم أضربكم بسيفى ما بقى فى يدى منه، ثم شأنكم بعد ذلك. وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة وتخلوا سبيلى.

قالوا: نعم.فتعاهدوا على ذلك، فدلهم، فأنزل الله على رسوله القرآن.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1] حتى فرغ من الآية، فلما رأى النبى ﷺ صهيبا قال: ربح البيع يا أبا يحيى وقرأ عليه القرآن][2].

وهذه الرواية تظهر روح التحدى والمقاومة عند الأوائل.

لقد جعل صهيب هجرته منتهى أمله وأوقف حياته وبقاءه فى الحياة عليها، وهدد القرشيين بأنه سيقتل منهم ما استطاع كيف استطاع، ليخبرهم أنه لا مناص من الهجرة، وأفهمه أنه بعد استنفاد جهده ضدهم ربما قتلوه بعد أن يقتل منهم ما تصل إليه يده، ثم بعد ذلك عرض عليهم المال.

وقد أراد بذلك أن يدعوهم إلى الله تعالى بفاعليته وانفعاله بالإيمان. إنهم لن يؤمنوا على الفور وأمام صهيب. ولكنهم حين يرجعون إلى بيوتهم وأهلهم وحين يخلون بأنفسهم سيسألون أنفسهم هذا السؤال؟ ما الذى جعل صهيب يضحى بنفسه لوقبلنا القتال ويضحى بماله حين قبلنا المال؟

لا شك أنهم سيصلون إلى الإجابة من خلال صمود صهيب وعلوه عليهم بل على الدنيا جميعا، وربما كانت هذه الأسئلة التى تبحث عن إجابات شافية ثم لا تفتأ أن تحصل عليها من خلال فاعليات الأوائل وانفعالهم بالإيمان، وربما كان هذا هو الذى عجل بانضمام الكثير من أعداء الإسلام إلى ركابه والانضواء تحت لوائه، إنها مواقف نبعت من الإيمان والإنفعال به عند فريق ولكنها فجرت الإيمان فى قلوب فريق آخر.

(١) من سورة البقرة الآية ٢٠٧

(٢) جاء هذا النص أيضا فى كنز العمال فى جـ ١ ص ٢٣٧

والنفس التى عرفت الفاعلية عند الأوائل والإنفاعلية بالإيمان لا تكاد تركن إلى فكرة أن صهيبا عرض المال على القوم فى البداية وهذه النفس تجد راحة إلى فكرة أن صهيبا عرض المال على القوم فى البداية وهذه النفس تجد راحة فى غير ذلك من الأخبار التى تنسجم مع الخط النورانى لهذه الذوات المنفعلة.

وقد تحدث صهيب رضى الله تعالى عنهعن هجرته فقال: [لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ص، قالت لى قريش: يا صهيب. قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك،، والله لا يكون ذلك أبدا. فقلت لهم أرأيتم أن دفعت إليكم مالى تخلون عنى؟ قالوا: نعم فدفعت إليهم مالى، فخلوا عنى فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: ربح صهيب ربح صهيب - مرتين][1]

هذا الخبر هو الذى ينسجم مع فاعلية صهيب رضى الله تعالى عنه، لقد كانت عين المشركين دائما على ماله، وعلى ثورته التى كونها من التجارة بينهم، والآن وقد جمع ثروته وهم بالذهاب إلى عدوهم فى يثرب، قد أصبح للثروة بعد آخر، أنها ستتحول إلى حركة دافعة فى يدى المسلمين ولذلك فرغبة القرشيين فى ثروة صهيب مفهومة وعللها معلومة

وقف صهيب يفكر كيف يضحى بثروته دفهة واحدة وبقرار منه، وليس بتنازلبة، ولكن فاعليته دفعته إلى الاختيار الأقرب للذات المنفعلة بالإيمان، والتى لا تجد ما يعدله فى الحياة، غير أن الرواية الأخيرة للخير والتى يعرض فيها القرشيون على صهب ترك ماله والذهاب إلى يثربدونه، وهذا الخير إذا أضفنا إليه تهديده لهم بالقتل، وتحولهم عنه إلى ماله، وهذه المعلومات مجمعة هى التى تحدد الذات المنفعلة عند صهيب، ذات تشعبت بالبطولة، وارتوت بالإيثار.

(١) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٢٤٧ ط دار المعرفة، بيروت واخرجه ابن سعد فى طبقاته أيضا فى جـ٣ ص١٦٢ ط دار المعرفة ببيروت.

٢ - طلحة بن عبيد الله - رضى الله تعالى عنه

وفى غزوة أحد، حيث انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ وأحاط به الأعداء من كل جانب. ورأى ذلك طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه، فتقدم حتى حال بين رسول الله ﷺ وبين المشركين وظل يضربهم بسيفه وهم يضربونه بسيوفهم، ويصيبهم ويصيبونه. ومع كثرة إصابتهم له لم يشعر بألم، ولم يستشعر الموت وفقدان الحياة.

ويقول سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه: [ذلك يوم لطلحة. كنت أول من فاء يوم أحد، فرأيت رجلا يقاتل فى سبيل الله دونه وأراه قال: حمية. قال: فقلت كن طلحة حيث فاتنى ما فاتنى، فقلت: يكون رجل من قومى أحب إلى، وبينى وبين المشتركينرجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشى خطفا لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه، فأنتهينا إلى رسول الله ﷺ، وقد كسرت رباعيته وشبح فى وجهه، وقد دخل فى وجنته[١] حلقان من حلق المغفرة[٢].

قال رسول الله ﷺ : عليكما صاحبكما يريد طلحة، وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله، وذهبت لأنزع ذلك من وجهه.

فقال: أقسم عليك بحقى لما تركنى فتركته فكره تناولها بيده فيؤدى رسول الله ﷺ، فأزم عليها بقية[٣].

فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقه، وذهبت لأصنع فقال: أقسمت عليك بحقى لما تركتنى، قال: ففعل مثلما فعل فى المرة الأولى فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه من أحسن الناس هثما، فاصلحنا من شأن

(١) وجنته: ما ارتفع من الخدين.

(٢) المغفرة: حلقات تحمى من يرقد بها.

(٣) أزم: عض بالفم كله. المعجم الوسيط جـ١

رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الجفار - حفرة فى الأرض - فإذا به بضع وسبعون طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه. فأصلحنا من شأنه][1].

بضع وسبعون ضربة، بعدد شعب الإيمان على أصح الرويات، بالها من مقابلة عجيبة ومفارقة غريبة، كل شعبة من الإيمان كان لها زكاة من الفاعلية عندهم، إنه إيمان فاعل وأفعال مؤمنة. يقول صاحب رجال حول الرسول عن هذا الخبر: [وابصر «طلحة» جانب المعركة الذى يقف به رسول الله صلى الله تعالى وسلم فألقاه قد صار هدفا لقوى الوثنية والشرك، فسارع نحو الرسول... وراح - رضى الله تعالى عنه - يجتاز طريقا ما أطوله على قصره... طريقا تعترض كل شبر منه عشرات السيوف المسعورة... وعشرات من الرماح المجنونة؟

ورأى رسول الله ﷺ من بعيد يسيل من وجنته الدم، ويتحامل على نفسه، فجن جنونه، وقطع طريق الهول فى قفزة أو قفزتين. وأمام الرسول وجد ما يخشاه... سيوف المشركين تلهث نحوه وتحيط به تريد أن تناله بسوء. ووقف طلحة كالجيش اللجب يضرب بسيفه الهتار يمينا وشمالا... ورأى دم الرسول الكريم ينزف، وآلامه تئن، فسانده وحمله بعيدا عن الحفرة التى زلت فيها قدمه.

كان يساند الرسول بيسراه ويصدره، متأخرا إلى مكان آمن، بينما يمينه –بارك الله يمينه - تضرب بالسيف وتقاتل المشركين. الذين أحاطوا بالرسول –صلى الله تبارك وتعالى وسلم - وملأوا دائرة القتال مثل الجراد...

وفى جميع المشاهدات والغزوات. كان طلحة –رضى الله تعالى عنه فى مقدمة الصفوف، ويبتغى وجه الله تعالى، ويفتدى رآية رسول الله صلى الله تعالى وسلم][2].

---

(١) ابن كثير: البداية ص ٢٩ وأبو نعيم فى الحلية فصل المعرفة وعند ابن سعد الطبقات جـ٣ ص ٢٩٨ وابن عساكر فى كنز العمال جـ٥ ص ٢٧٤ وأخرج مثله البخارى ومسلم.

(٢) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول ﷺ ص٣٧٦، ٣٧٧ ط دار ثابت ١٩٩٠م.

وفى النص السابق تتضح فعاليات الإيمان وإنفعالات الذاتية المنفعلة بالنسبة للصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه. ويمكن ترجمة هذه الإنفعلات الإيجابية إلى ما يلى:

(أ) إقباله بعد إدبار الآخرين.

(ب) حمله رسول الله ﷺ والدفاع عنه.

(ج) تجاهله لآلامه المبرحة، وتلاشى نفسه فى الدفاع عن رسول الله ﷺ.

- **بالنسبة لإقباله بعد إدبار الآخرين:** فإن هذا يعد مدخلا لذاتيته المنفعله، فالإنسان يقبل ويقتحم وينسى الموت فى اللحظات التى يشعر فيها بقرب النصر، أما وقد بدت علامات الهزيمة تشخص للعيان، فإن الإقبال هنا يكون لهدف آخر، وهذا الهدف يتجه ناحية العاطفة النفسية، تلك العاطفة الدينية التى ملكت على الأوائل أنفسهم وأفئدتهم ومشاعرهم. إنه يقبل والسيوف فى تزاحمها الحاقد لا تترك موضعا جديدا لسيف، أو رمح، إنه يقبل والموت أوضح لديه من الحياة، إنه خرج من ذاته وابتعد عنها، وأصبح لا يرى إلا ذات رول الله ﷺ . فهى الجديرة بالحياة ومن أجلها يضحى بالحياة، والإنسان حين يصل إلى هذه الدرجة من الإنفعال العاطفى. والعاطفة المنفعلة فإنه يكون قد تكونت لدية ذات الإيمان.

وحمل رسول الله صلى الله تعلى عليه وسلم: والدفاع عنه كان جزءا من هذا السلوك الإيجابى السلوك الذى يوحد النفوس ويجمع الذوات، لقد جعلته الذات المنفعله يقوم بعملين كبيرين فى لحظة واحدة. فهو ينقذ البطل العظيم من حفرة زلت قدمه فيها وفى ذات يوم يدافع عنه ليكشف لدارس علم النفس الحديث عن تشعب السلوك الناشئ عن إدارة واحدة، لكنها إرادة منفعلة وفاعلة فى ذات الوقت.

- **وتجاهله لآلامه**: هو القمة السامقة لهذه الذات المنفعلة، إن الإنسان يضعف أمام مكوناته كإنسان، ومن هذه المكونات الإحساس بالألم. بل هو ابرزها على الإطلاق، لقد كان كثير من الصحابة لديهم الاستعداد للدفاع عن رسول الله – ﷺ - وتناسى آلامهم. أو ذوبان آلامهم فى آلامه، وهذا لطلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه.

إن الإنسان يتألم من لا شئ وهو متقوقع فى ذاته، بينما لا يشعر نفس هذا الإنسان بأى ألم مهما بلغت قسوته إذا قفز خارجا من الذات، أو خارجا عنها، بضع وسبعون طعنة وهو يؤدى مهمته فى الدفاع عن روسول الله ﷺ، هذه البطولة النادرة هى التى جعلت سيدنا أبو بكر رضى الله عنه. يقول عن يوم أحد إنه كان يوم لطلحة بن عبيد الله رضى الله عنه.

وفى النهاية يجب الإشارة إلى ما قدم قطرة من محيط بالنسبة لفاعلياتالأوائل أو ايجابياتهم فى تقبل الإيمان، غير أن ما قدم فى هذا البحث يعتبر نماذج يمكن السير على منوالها، أو اليرفى اتجاهها، إنها بداية دراسة لذاتيتهم المنفعلة. وليست استيعابا لهذه الذاتية التى تفاعلت مع الإيمان، حتى أصبح التميز بينهما أمرا عسيرا، وكما كان الإيمان عنوانا على الأوائل أصبح التمييز بينهما أمرا عسيرا، وكما كان الإيمان عنوانا على الأوائل أصبح الأوائل بعد تفاعلهم بالإيمان عنوانا عليه وداعيا له وهذه ميزة القيادة والريادة للتابعين فى كل مكان وعبر الزمان.

الفصل الثالث:

ما تحتاجه الأمة الإسلامية

تعقيب أول:

إن من يطالع هذا لابحث يتبادر إلى ذهنه سؤال: ما الفائدة التي ستعود على الدعوة الإسلامية من دراسة ذاتية الأوائل المنفعلة؟!

وقبل الإجابة يجب إعادة التذكير بأن الإنفعال النفسى فى هذه الدراسة لا يقصد منه الإنفعال بمعناه العادى ولكن يقصد منه تفاعل النفس الإيجابى مع فكرة ما.

وعلى ضوء ما تقدم تكون فائدة الدراسة هى الوقوف على إيجابيات الإيمان، ووضع أطر وأسس السلوك الإيمانى، وتميزه عن غيره من أنواع السلوك ويمكن طرح هذه القضية على هيئة سؤال هكذا - ما هو القاسم المشترك بين الأوائل وبيننا؟

والإجابة: إله واحد، ونبى خاتم، وكتاب محكم، وسنة ما صح منها يهدى إلى الحق والخير والرشاد، وهذا عن القاسم المشترك الأعظم. أما حين نمعن النظر إلى تعامل الأوائل مع حقائق الإيمان السابقة، وتعامل الخلف الذين خلفوا من بعدهم فإننا ندهش للفرق الكبير، فسيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه على سبيل المثال آمن برسول الله - ﷺ - من البداية، وصدقه حين كذبه الناس، وكان ثانى اثنين إذ هما فى الغار، وانفق حل ماله فى سبيل الله سبحانه وتعالى، وكان من العشرة المبشرين بالجنة، ومات رسول الله ﷺ وهو عنه راض.

جاء ذكره فى القرآن الكريم طيبا، عند بعض التفاسير، وتولى الخلافة فسير جيش أسامة, وقاتل أهل الردة، وجعل للإسلام وصولة وشوكة، ولكن شعاره كان دائما. (إنى لا

آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماى هاتين فى الجنة). هذا المعيار الإيمانى حين تضعه على كثير من الذوات اللاحقة لا تجد له انطباقا، وإن انطبق من ناحية، فإنه يتعرى من عديد من المناحى، ولزيادة الأمر وضوحا نقول:

رب رجل أجهد نفسه في خصلة واحدة من خصال سيدنا أبى بكر رضى الله عنه، فإنه يتجاهل باقى الخصال التى لا يقدر عليها، ولكنه يحير الباحث حين يراه قانعا بخصلة واحدة غير مكتملة، ومع ذلك له يقين بأنه: من أهل الجنة لا محالة ويستشعر رضى الله فى كل عمل يقوم به - خلال مرآته المعتمة - ولو كان فى كثير مما يقوم به ظلم بين الناس، عند هذا الحد من المقارنة يتحتم على الباحثين فى علوم الدعوة الإسلامية النظر بحذر إلى سلوك المعاصرين من المسلمين، ومحاولة ردهم إلى التفاعل الإيجابى مع الإيمان وصرفهم عن الإيمان السلبى الذى ينبع من داخل النفس وينعكس عليها مرة أخرى. فلا ترى هذه النفس إلا ما أرادت أن تراه، ولا تبصر إلا ما صورته لنفسها فى عالم الخيال.

وكثير من يرون أنه عدم الالتزام الشديد بشريعة الله تعالى والتغاضى عن كثير من محدداتها. يرون أنهم من الذين يرثون الفردوس. وهذه الرؤية فى أحسن الظنون خيال وليست إيمان، وهذا يقودنا إلأى التأكيد على أن الدعوة يجب أن تبدأ من القرآن الكريم والسنة الشريفة الصحيحة مرة أخرى، أى يجب أن ندخل الإيمان إلى الذات من خارجها من مصدره الصحيح من المبدأ، ولا تترك كل مدعو يضع لنفسه إيمانا سقيما إذا قيس بإيمان الأوائل تحول إلى هواء وهراء.

تعقيب ثان:

يجب النظر إلى تحمل الأوائل الشدائد والآلام فى سبيل الدعوة الإسلامية على أنه تحمل هادف، وليس حبا فى التعذيب واستعذابا للآلام كما تنادى بذلك بعض النحل مثل البوذية، أو كما يمجد الألم عند المسيحين.

إن تحمل الألم عند الأوائل كان لهدف رئيسى يتفرع عنه كثير من الأهداف: أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى، أى أن تسود شريعة الله تعالى فى أرض الله بحانه وتعالى، وهذا أظهر التفاعل الإيمانى فى سلوكهم.

إنهم علموا أن الإيمان ثورة لتغير الحياة، إنها ثورة لنشر الحق والخير والجمال. والجمال هنا معناه إزالة كل قبيحيشوه وجهة الحياة، حتى تشرف الأرض بنور ربها، بنور الرسالة الخاتمة، الرسالة الكبيرة التى جاءت لإصلاح عالم كبير.

من أجل هذه المعانى الحية فى ذاتها، والشاخصة فى ذات الأوائل كانت النظرة للدين مختلفة عما هى عليه الأن. فالمظاهر الإيمانية غير إيجابية على الإطلاق، وليست هادفة. فما هو الهدف من وراء التشدد فى تصنيف ما يحل من الطعاموالليباس؟

برغم عدم الإلتزان بالحد الشرعى عند من يدعون السلفية، وما هو الهدف من تعظيم شعيرة الاعتكاف بينقوم يتسولون طعامهم من أعدائهم؟ وما هو الهدف من جعل من يترك بعض النن كافرا؟.

والعدوينتقص أطراف الأمة الإسلامية من كل جانب وعلى الجانب الآخرنجد من يجعلون العبادة هدفا ويتقطعون لها وهم من أمة رهبانيتها الجهاد.أتراهم يسنون شريعة جديدة، أو يجدون رهبانية ابتدعها قوم لم يحافظوا عليها؟ والذين يرحلون من بلد إلى بلد لنصب الخيام فى ذكرى موت بعض المسلمين أو ذكرى مولدهم ما هو الهدف من سعيهم هذا...؟

إنهم يقولون: لإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتقرب إلى أوليائه. نعم قد يكون هذا سعيا محمودا ولكنه غير هادف على الإطلاق. فما الذى سيعود على الإسلام، وعلى الأمة الإسلامية فى وضعها الراهن من هذا الهدف السبيل؟

إن الأمة الإسلامية تحتاج إلى أناس يبيعون أنفسهم وأموالهم لله تعالى ولنصرة دينه، لكى ينقذوها من عثرتها. ويقيموها من كبوتها.

إن الحاجة العملية تدعو إلى المبادرة للتخلق بأخلاق الأوائل حتى تقوم للإسلام قوة تشرفنا. وترضى الله عنا. والسير على دربهم هو الأمل المنقذ وهو الأمل الهادى، وهو الأمل الوحيد.

الباب الثالث

الذاتية الغافلة

"تمهيد"

هذا هو البحث الثالث عن الذاتية الإنسانية " وهو يدور حول الذاتية الغافلة، وقد قدمت ذلك بتوفيق الله تعالى على صفحات هذه المجلة الغراء بحثين: الأول عن الذاتية الفاعلة، والثانى: عن الذاتية المنفعلة.

وهذا هو البحث الثالث عن الذاتية الغافلة. لأن الغفلة من المشكلات الكبرى التى تواجه الدعاة، حيت يتعرضون لدعوة الجماهير. والغفة التى تسيطر على الساحة الإسلامية الأن نوعان. غفلة فى الدنيا – أى عن واجب المسلمين فى الدنيا - غفلة عن الخلافة، وغفلة بالدنيا. رمى التعلق بالدنيا ومتاعهاحتى ينسى المسلم حياته الأخروية، وعلى المسلمين واجبى العبادة والخلافة.والغفلة عن واجب منهما تؤدى إلى الغفلة عن الآخر، ولكن الغفلة حين تشتد على إنسان وتملك عليه حواسه، تصبح مرضا خاصا من الأمراض التى يجب أن تقاومها الدعوة، لأن دعوة الغافل من سردراسة ذاتية سراب وهراء وادعاء وارتزاق.

أما الدعوة التى يراد بها وجه الله تعالى فهى دعوة مستبصرة. تدرس الذات وتحد نوعها، قبل أن تدعوها إلى ربها، وإمامنا زمعملنا هو رسول الله صلى عليه وسلم. ويظهر ذلك فى اختلاف أسلوبه ووسيلته فى الدعوة من إنسان لآخر، وعلى هذا جاءت دراسة الذاتية الغافلة.

«الفصل الأول»

رصد القرآن الكريم للغفلة

(أ) الغفلة فى القرآن الكريم: دراسة موضوعية:

جاءت مادة "غفل" أو "الغفلة" فى القرآن الكريم ٣٥ خمس وثلاثون[1] مرة، منها إحدى عشر مرة لنفى الغفلة عن الحق –سبحانه وتعالى، وهى كما يلى: -

١ - **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (سورة البقرة ٧٤)

وهذه الآية تعالج الغفلة عند المدعو بتشخيصها لحالة القلب الإنسانى حين يتمادى فى العناد والعصية. فالمدعو يطلبالآية من الرسول كلا يذعن للإيمان ولكن قلبه يزداد تحجرا بعد مشاهدة الدليل. وشهادة الواقع، ويتحجر قلب الإنسان حتى يصبح أشد قسوة من الحجارة، ومن هنا لا يفيد الذات الغافلة لإذعان الظاهر للشريعة من تحجر القلب، وجاءت نهاية الآية الكريمة معبرة عن ذلك «وما الله بغافل عما تعملون" ولسوف تعود بإذن الله نعالى إلى هذه الأية عند التعرض لطبيعية الذات الغافلة.

٢ - **قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ

(١) محمد فؤاد عبدالباقى. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٠٣ ط دار الحديث ١٩٨٧م.

بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. (سورة البقرة: ٨٥)

جاءت لفظة غافل فى نهاية الآية، إلا أن موضوع الآيه يبين موضوع أعراض الغفلة عند المدعو ويتجلى ذلك فى قوله تعالى «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»

أى أن الذات الغافلة تبحث عما يريحها فى تكاليف الدين، وتترك ما يسبب لها حرجا، وتغفل عن أنها ملزمة بجملة التكاليف، وهذا الأمر مشاهد الأن بكثرة حتى بين بعض المتدينين.

٣ - **قوله تعالى:** ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (سورة البقرة: ١٤٠).

٤ - **قوله تعالى:** ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ هذا التعبير الكريم يلقى ضوءا باهرا يكشف المخبوء فى ظلمات الذات الغافلة. حيث وصلت لإلى حالة تتصور معها كتم الشهادة عن عالم الغيب والشهادة.

٥ - **قوله تعالى:** ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾(سورة البقرة: ١٤٤)

٦ - قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (سورة البقرة ١٤٩)

٧ - قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ٩٩).

الحق سبحانة وتعالى ينفى الغفلة عن نفسة ويثبت أعراضها للمدعوين.ففى هذه الآية ترى عرض الذات الغافلة فى قوله تعالى: "تبغونها عوجا وانتم شهداء "تظهر الآية الكريمة أن الغفلة لا تكون بسبب الجهل فقط ولكن أحيانا ترتكز على العلم علم الغافل فى الأحوال.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

(سورة الأنعام: ١٣٢)

٩ - قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾(سورة هود: ١٢٣).

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

(سورة النمل: ٩٣).

١١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾(سورة إبراهيم: ٤٢).

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾

(سورة المؤمنون: ١٧)

فى الآيات السابقة عدد نتائج مهمة لسير البحث عن الذاتية الغافلة، وسوف نعود إليها بإذن الله تعالى فى ثنايا البحث إلا أن النتيجة الهامة للبحثفى نهاية الآيات التى ينفى فيها الحق سبحانه وتعالى عن نفسه الغفلة، فى ذات الوقت بنيه على أعرض الغفلة عند المدعو. ومن هنا جاء عجز الآية الكريمة مفتاحا لفهم معناها، وهذا المفتاح هو ما يحتاجه كل دارس لتفير القرآن الكريم، وهو ما يجتهد إليه البحث هذا البحث الذى نحن بصدده الأن.

مواقف الذاتية البشرية الغافلة من:

سوف نستعرض فيما يلى مواضع ذكر الغفلة فى القرآن الكريم، وهى المواضع التي ستحدد لنا فى النهاية ما هية الذاتية الغافلة وكيفية علاجها، وجعلها ذاتية منفعلة فى عمومها. فاعلة فى بعض من أفرادها. وسوف نذكرها بترتيبها فى القرآن الكريم.

١ - العبادة والخلافة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

(سورة النساء: ١٠٢)

وفى هذه الآية الكريمة يتجلى التكامل العضوى بين مهمتى العبادة والخلافة، وأن محاولة الإهتمام بإحداهما على حساب الأخرى إنما تأتى بالعاقبة البائسة الوخيمة. فهذا هو النبى ص، وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم –خير القرون - يحذرهم الحق بحانه وتعالى من الغفلة التى تأتى من تقديم واجب العبادة –بصلاة جميع الموجودين جماعة - على واجب الخلافة بترك مجموعة للحراسة، لأن كسب أرض جديدة للإسلام لا يقل أهمية عن آداء الصلاة الخسعة الطاهرة القانتة. وإن كان لا يقبل من غيرها، بل يخرج من خيرها، ويااليت إخواننا الذين ينظرون إلى مهمة الإنسان فى الأرض، ويرونها العبادة فقط يراجعون مثل هذه الآية –وهو كثير فى كتاب الله تعالى - ويرجعون عن مواقفهم السلبية فى الحياة.

وبحسب منطق هؤلاء كان على النبى ﷺ والصحابة الكرام أن يصلوا جميعا بخشوع، وكان على الله تعالى أن يحرسهم، ولكن الله تعالى بين لهم أن حراستهم واجبة عليهم هم حتى أثناء الصلاة الخاشعة، وأنه يوفقهم حين يؤدون واجب العبادة، والخلافة ولا يكتفون بأحدهم دون الآخر، كما يفعل المسلمون الأن تحت ظلال الهزائم العسكرية والنفسية، أما أيام النصر(فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم، وطائفة أخرى تحرسهم. فصلى بالذين يلونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم، فقاموا فى مصاف أصحابهم، ثم

جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم، فقاموا فى مصاف أصحابهم، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين. فيومئذ أنزل الله فى قصر الصلاة تشريعا وأمر المؤمنين بأخذ السلاح)[1].

٢ - الغفلة والأمر الفُرط:

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾(سورة الكهف: ٢٨).

يحدد الحق سبحانه وتعالى أسباب الغفلة فى صدر هذه الآية الكريمة أنها فى عدم الانضمام إلى قافلة المؤمنين. وفى التعلق بزينة الحياة الدنيا وطاعة أهل الغفلة لا يثبتون على مبدأ فى الحياة بل لا يعرفون الحياة بمبدأ، بل يعرفونها فرطا، ولا ينبغى أن يظن الإنسان عندما يقرأ هذه الآية أن رسول الله ﷺ كان فى نيته أن يفعل ذلك، والله تعالى قد منعه عن طريق هذا التحذير.

بل الأقرب إلى القبول أن هذه الآية قد أظهرت صفات الفريقين - المتيقظ والغافل - عن طريق هذا الأسلوب البديع فى التحذير لأنه يحذر من لايصدر منه هذا الفعل أبدا. وهذا التحذير بهذا الشكل يوقظ المستمع إلى محاولة البحث عن صفات الفارقة بين الطائفتين، ولعل أبرز هذه الصفات عندهما - اليقظة التى تجعل الفريق الأول لا يغفل عن دعاء ربه - بمعنى عبادته وطاعته فى أمور الدنيا والآخرة لأن هؤلاء هم الذين أعطونا المثل الأعلى فى طاعة الله تعالى. والمثل الأعلى أيضا فى عمارة الدنيا والسعى فى مناكبها –بالغداة والعشى، أى الليل والنهار، والغفلة عند الفريق الآخر الذى جعلته يتبع هواء، ويصبح مفرط الأمر مختل الاتجاه.

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٥٤٨ ط دار المعرفة ١٩٦٩م.

تعقيب:

لم يسند فعل الغفلة إلى الله تعالى - بمعنى أنه أغفل الناس فى القرآن الكريم كله إلا فى هذه الآية، والحقيقة أن الله تعالى منزه عن فعل الغفلة للناس، لأنها تبعدهم عن ذكره، ولكن استمد فعل الغافلة بهذا الشكل لأن لله تعالى أنوارا يرسلها للقلوب المستجيبة فتزداد نورا وتعلقا به ويحجبها عن القلوب الغافلة التى لا تنظرها فتزداد غفلة ومن هنا قال تعالى: (أغفلنا) ويصح أن يقال فى المعنى: غفل عن خوف المقام. فزادهذلك إلى الغفلة عن الذكر، أو أغفلنا عنه لأنه لا يستحق أنواره.

وهى فى جميع الأحوال نتيجة لتخاذل العيد فى البداية وهذا يوضح خطر الغفلة، وضياع أمل الغافلين. «أغفلنا قلبه» من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر بالخذلان، أو وجدناه غافلا عنه، كقوله أجبته، وافحمته، وأبخلته، إذا وجدته كذلك،... أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سنة[1]. «أغفلنا قلبه» فلو ذكروا الله لتركوا كبرياءهم وخففوا من غلوانهم... فهم وأقولهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال. جزاء ما غفلوا عن ذكر الله تعالى....

أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه، وشهواته، فلم يعد فى قلبه متسع لله تعالى، والقلب الذى يشتغل بهذه الشواغل ويجعلها غاية حياته، لا حرم يغفل عن ذكر الله تعالى، فيزيده الله تعالى غفلة، ويملى له فيما هو فيه. حتى تفلت الأيام من بين يديه ويلقى ما أعده الله تعالى لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم[2].

وقبل أن تترك هذا التعقيب حول لفظة "أغفلنا" أحبذ هنا رأى المرحوم الأستاذ سيد قطب لأنه ربط أسباب الغفلة بمسبباتها. وجعلها من الله تعالى لكنها نتيجة لظلم العبد لنفسه ببعده عن ذكر الله وهو –أى الذكر - من أهم العوامل التى تمحوا الغفلة عن قلب العبد وتجعله يقظا راشدا، وهو ما ذهبنا إليه فى شرح هذه الآية.

(١) الامام الزمخشرى تفسير الكشاف جـ٢ ص ٤٨٢ ط الحلبى ١٩٧٢م.

(٢) الاستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن

٣ - قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

(سورة الأنعام ١٣٠، ١٣١)

فى الآية الأخيرة تأتى كلمة غافلون بمعنى جاهلون –أى لم تبلغهم الدعوة، والمعنى أن الله تعالى يقول: إننى لا أهلك القرى من غير أن أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات ثم بعد ذلك يتم الهلاك بسبب الغفلة عن هذه الآيات بعد العلم بها.

وعلاقة هذه الآية بالغفلة علاقة عكسية بمعنى أنهم لم يؤخذوا غافلين، بل شهدوا على انفسهم أنهم كانوا كافرين (أى إنما أغذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئل يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه الدعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل إليهم) وعلى هذا يكون معنى الغفلة متناسبا تناسبا طرديا فى الآية الأولى

- أرسلنا الرسل والآيات وغفلتم عنها - وتناسبا عكسها فى الثانية - بعد غفلتكم عن الرسالات أخذناكم وأنتم تحملون مسئولية الرسالة التى جاءت إليكم ولستم على فترة من الرسل. تجهلون الكتاب ولا الإيمان.

4 - الغفلة ووالتحول الوظيفى للحواس:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٩)

فى الجزء الثانى من هذه الوحدة سوف يأتى شرح هذه الآية بالتفصيل إلا أننا سنلقى ضوءا على الغفلة والتحول الوظيفى للحواس، فحواس الإنسان تختلف عن حواس

الحيوان اختلاف تفضيل وخلافه، فحواس الحيوان تعينه على الحياة فقط وفق هدف محدود وأن يكون مسخرا لغيره

أما حواس الإنسان فهى حواس لها وظيفات:

الاولى: للحياة العادية التى يشترك فيها مع الحيوان.

الثانية: معاينة ألاء الله تعالى فى كتاب الهداية (الكتب المنزلة) وفى كتاب الكون المفتوح، إن الإنسان مكلف بتتبع جلال الله تعالى فى كونه، وجماله فى تكوين هذا الكون الفسيح، وحين تقف مهمة الحواس - بسبب الغفلة - عند الأمور الحياتية فقط، وتعرض عن الجانب الآخر الذى يغذى الروح وينمى الإيمان، يكون قد حدث تغير كبير فى وظيفة الحواس البشرية، وتحول الإنسان بحواسه المبصرة إلى مرتبة الحيوان المنغلق بحواسه على كيانه.

بل انحدر إلى مرتبة أضل لأنه سيعيش حياة حيوانية لم يؤهل لها أصلا، فإذا كان الحيوان فى محاولة دائمة لأستشراف جوانب الجلال والجمال فى الكون وتقف بعض حواسه أحيانا دون هذه الغاية، فكيف يساوى بإنسان ترك النظر فى كون هوله. وكون هو للنظر فيه، لا شك أنه سيصبح حينئذ أضل من هذا الحيوان لأن الغفلة طمست حواسه وغيرت وظائفها.

5 - الغفلة والتكذيب بالآخرة والاطمئنان إلى الدنيا والرضا بها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ (سورة يونس:٧)

فى هذه الآية الكثير من أغراض الغفلة:

الأول: ضعف الإيمان بالغيب خاصة البعث والآخرة بصفة عامة، لأن الغافل يبدأ غفلته بتجاهل تكاليف الدين الإيمانية والعملية والفرضية، ثم بعد ذلك تنسحب غفلته على اعتقاده فيصبح شعاره وما أظن الساعة قائمة وهذا الشعار حتى موته.

الثانى: الرضا بالدنيا كبديل ملوس لمتاع الآخرة الغيبى البعيد ولو كشف لهم الغيب لعاينوا الحقيقة.

الثالث: الاطمئنان إلى الدنيا وإلى عدم تغيرها وتبدلها إلا أن هذا التغير من أخص صفات الدنيا وأكثر مكوناتها.

الرابع: وهذه الآية الكريمة تفتح بابا كبيرا فى فهم محددات سلوك الغافل. وتوضيح بناته النفسى الدخلى وهى أمور لم تتناول بالدراسات إلى عهد قريب، وعلى علماء الدين تقع مهمة إبراز هذه الدراسات النفسية الإيمانية لأن جل نشاط علماء النفس ينصب على محاولة فهم النفس البشرية من خلال دراسة سلوك الحيوان وهذا بعيد جدا عن الغاية، ضال فى الوسيلة (أن الذين لا يرجون لقاءنا) لا يتوقعونه أصلا ولا يخطر ببالهم لغفلتهم المذهلة بالذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذى يجب أن يخاف، وآثروا القليل الفانى على الكثير الباقى.... وسكنوا فيها سكون من لا يزعج منها، فبنوا شديدا وأملوا بعيدا)[1].

فى السطور السابقة وضع المؤلف - رحمة الله تعالى - يده على خواص سلوك الغافلين فى هذه الآية الكريمة.

6 - الغفلة حتى الموت:

قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (سورة يونس ٩٢).

توضح الآيات السابقة على هذه الآية كيف استمر فرعون فى غفلته لا يرجو لقاء الله تعالى. مطمئنا إلى الدنيا راضيا بها حتى وأدركه الغرق، فحاول التوبه ولكنها لم تقبل، وكتب الخروج لجسده فقط من الماء، وفى هذه الآية يعرض لنا الحق تعالى، هذه النهاية البائسة

(١) الامام الزمخشرى. الكشاف جـ٢ ص ٢٢٦.

إلا إنه ينبغى أن هذه الآية مع وضوحها إلا أن الغفلة ستصرف عنها كثيرا من الناس، وكم من حكام مسلمين زاروا المتحف المصرى وشاهدو بدن فرعون محنطا تمر عليه السنون لا حول ولا طول وعاد هؤلاء الحكام إلى بلادهم وتسربلوا بغفلتهم وانقلبوا على شعوبهم فراعين جبارين.

7 - الغفلة والمؤامرة:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾(سورة يوسف ١٣).

يذهب معظم المفسرون إلى أن يعقوب يعقوب عليه السلام لقن أولاده المعذرة التى يقتدون بها، وهى قوله: «وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون».

يقول الإمام ابن كثير: «فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم»[١].

يقول الإمام الزمخشرى: "قال ذلك فلقنهم العلة"[٢].

يقول الأستاذ/ سيد قطب: "ولابد أنهم وجدوا فيها عذرا كانو يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم.. حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب"[٣].

يقول الإمام القرطبى: "وآخذوا ذلك من فيه فتحرموا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه"[٤] وعلى هذا تكون الغفلة هنا على معناها الحقيقى إلا أننى لا أميل إلى رأى علمائنا الأجلاء فى أن يعقوب عليه السلام قد لقن أولاده المعذرة، بل أذهب إلى أنه عليه السلام كان يسد عليهم طريق الغدر، ويفوت عليهم حجتهم لأنه كان يستشعر عن طريق الوحى أو الإلهام أنهم سيحاولون الغدر بأخيهم مما سيصل بيوسف عليه السلام إلى مهمته الكبيرة

(١) ابن كثير جـ٢ ص ٤٧

(٢) الكشاف جـ صـ٣٠٦

(٣) فى ظلال القرآن جـ٦ صـ١٩٧٥

(٤) الإمام القرطبى. الجامع لأحكام القرآن جـ٩ ص ١٤٨ ط دار إحياء التراث ١٩٨٥م.

فى مصر وهى الدعوة إلى الله تعالى وإنقاذ البشرية من الموت جوعا وهى لم تنزل فى بداية الطريق. وهذه إلى حد كبير تشبه خروج آدم عليه السلام من الجنة لأنه خرج للخلافة التى خلق من أجلها وكان الخطأ معلما من معالم طريقه وأولاده الطويل.

وتأسيا على ما سبق تكون غافلون بمعنى متغافلون لأنه كان يعلم أن نية الغدر موجودة ولما قال لهم: «وإنى ليحزننى أن تذهبوا به" لم يكن ذلك شوقا ولهفة كما ذهبت سادتنا المفسرون ولكن كان هذا القول على الحقيقة لأن هذا الذهاب لأن هذا الذهاب سيجلب له الحزن: ولكنه لم يكن حزنا لفقد الإبن - كما ذهب العلماء أيضا - ولكنه للفراق المختتم بالعودة والجمع بإذن الله سبحانه وتعالى حين صاح «ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل».

لقد كان ليعقوب كثير من الأحداث عن طريق الوحى، وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام بكثير منها وهو فى الجب، وهذا هو دأب الأنبياء فى استكناء الغيب.

ويرد قول المفسرين السابق بما يلى:

١ - رؤيا يوسف التى يسجد له فيها الأب والأم والأخوة. والإلقاء فى الجب، بداية الطريق وليس نهايته.

٢ - قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ومن يقول بهذا لا يعقل منه من يصدق أن الذئب سيأكل يوسف فى غفلة من إخوته

٣ - قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فهو من البداية يعرف المؤامرة ويعرف أن تغافلهم جزء منها، لأنه يقول لهم إنكم تأخذونه لأمر آخر ولكن تصادف وهجم عليه ذئب فإنكم ستتغافلون عنه حتى يقضى نحبه، لأن الخلاص منه هو هدفكم فى كل الأحوال.

٤ - قوله: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ إذن فهو لم يصدق موضوع الذئب بعد قسم أبنائه على حدوثه، فكيف يتصوره قبل أن يحدث، ويتصور أن الغفلة تؤدى إليه، وسوف أكتفى بهذا القدر مع بقاء كثيرا من الأدلة فى الكتاب العزيز.

8 - **الغفلة والطبع على الحواس:**

قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (سورة النحل١٠٧).

هذه ذوات إنسانية استمرأت الغفلة ورانت على قلوبهم آثار المعاصى، فطبع على فلوبهم وسمعهم وأبصارهم. وهذه الآية توضح ما للغفلة من خطر على الغافلين، وعندما تطالع صدر الآية فإنك تتساءل مانوع الذنوب التى جعلت هؤلاء يستحقون الطبع على القلوب والأسماع والأبصار. ويخبرك الحق سبحانه وتعالى أنها الغفلة. التى جعلتهم لا يستحقون لداع يدعو بينهم إلى الطريق القويم.

9 - **العلم الدنيوى لا يفيد فى رفع الغفلة:**

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الروح: ٧).

البعد الزمنى من الأبعاد التى لا يمكن إغفالها عند التعرض لتفسير القرآن الكريم، وهذه الآية من الآيات التى يلعب التعاقب الزمنى فى تفسيرها دورا بارزا. لقد أغترت بعض الأمم فيما سبق بما وصلت إليه من العلم الدنيوى. وظنت أنها لا تحتاج إلى توجيه السماء. وكان ذلك بسبب الغفلة التى فصلت بينهم وبين السؤال الخالد: من أين.؟ وإلى أين؟

إنهم اغتروا بما عملوا من ظاهر الدنيا. وقد اعترف الحق سبحانه وتعالى لهم بهذا العلم الظاهرى ولكنهم غفلوا عن الغاية من كل الوجود، واليوم ترى الغافلين وقد حصل بعضهم على أعلى الدرجات فى العلك الدنيوى ولكنه لا يعلم شيئا عن الطريق إلى الله تعالى، إنهم حددوا ورسموا الطرق فى أعماق المحيطات والبحار. وحددوا طرقا فوق الكواكب البعيدة عنا بملايين السنين الضوئية، ولكنهم فشلوا فى قطع خطوة واحدة على طريق الحق سبحانه وتعالى.

وليس هذا هجوما على العلم الدنيوى - بل هو من أول واجبات الخلافة وهو علم يرضى الله سبحانه وتعالى: ويسخطه تركه - ولكن العلم الدنيوى الظاهرى علم بالوجود من غير علة للبداية ولا هدف للنهاية، وهو بهذه الصفة علم مبتور معثور.

لكن العلم الظاهرى –على الحياة - يفيد إذا ارتبط بعلة الحياة والوجود وهو الحق سبحانه وتعالى - عندئذ يصبح على المزارع والطبيب والصانع وكل عمل لظاهر الحياة تراتيل وترانيم قدسية ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (الواقعة ٦٣، ٦٤) فى **الآية الأولى** ﴿ تَحْرُثُونَ ﴾ جهد بشرى لابد منه لتطوير الحياة (ظاهرا من الحياة الدنيا)

وفى الآية الثانية ﴿ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ فيض إلهى لابد منه، إننا يجب أن نعيش الوجود معللا، ولا نمر به غافلين و(أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشئونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها، ووجوه مكاسبها، وهم غافلون فى أمور الدنيا وما ينفعهم فى الدار الآخرة. كأن أحدهم غفل لا ذهن له ولا فكرة)[1].

10 - الغفلة بسبب غياب الرسالة:

قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (سورة يس ٦). إن الإنسان من غير رسالات الماء يعيش الحياة غافلا عن وجود الكريم الذى أوجده، ولكنه يعذر لأنه ارتبط بالحياة حتى ضعفت فطرته، وأصبح لا يستطيع استكناه سر وجوده على الأرض إلا برسالات السماء والغفلة فى هذه الآية بمعنى غياب الرسالة، لكن الغفلة فى هذه الحالة ليست بريئة من كل ما ارتكب فيها بل حجر زاويته وسنام أمره، ومن يريد أن يدرس آثار الغفلة عن الدين فعليه أن يدرس أقرب جاهلية عاشها البشر قبل بعث النبى الخاتم.

11 - الغفلة ودعاء من لا يستجيب:

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الأحقاف: ٥)

(١) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص ٤٢٧.

ومن المصاعب التى تسببها الغفلة ما يعرف بإنعكاس القصد. وهو محاولة الإنسان أن يقنع نفسه بشئ يضره. إن الدعاء سواء بقصد العبادة أو الطلب. لا يكون إلا لمن قادر سميع قريب فى كل الأمور ومختلف الأحوال، وهذه الصفات لا تتحقق إلا لله.

ولكن البشر بسبب الغفلة عبدو الملائكة، وعبدوا الأحجار. وتوجهوا إليهم بالدعاء، وهم لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة. بل إن الآية الثانية تخبر أن هذا الدعاء من طرف واحد، يجلب غضب المدعو لا استجابته. ولذلك فخسارة الغافل خسارتان، عدم الإستجابة وعداء المدعو، وخير القرآن الكريم قاطع فى عدم استجابة أى أحد من دون الله تعالى إلى يوم القيامة، ومع ذلك فالغفلة تجعل كثيرا من المسلمين عندما تنزل بهم شدة ما يتجهون بالدعاء إلى الصالحين من أمة الإسلام، وبرغم ما فى ذلك من عاطفة ملموسة، إلا أنه يجب ترك الدعاء والطلب من غير الله سبحانه وتعالى.

وإننا لا نمنع زيارة قبور الصالحين والدعاء لهم بالمنزلة الكريمة جزاء ما قدموا لدينهم، ولأمتهم، إلا أننا ننبه أن الطلب منهم قد يجعل الطالب يخسر طلبه، ولا يكسب إلا عداوة هؤلاء الأخبار.

(ويجوز أن يريد كل من دون الله سبحانه وتعالى من الجن والأنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها)[1].

وإذا كان الدعاء بمعنى العادة على رأى الإمام الزمخشر فتبقى معنا مشكلة الطلب من غير الله تعالى بالدعاء فهل يستجيب الصالحون والملائكة والجن والجماد لطلب العبد، لا أحد يقول بالاستجابة، أما مشكلة العداء بين الطالب والمطلوب فإنها واقعة فى حالة العبادة مظنونة فى حالة الدعاء بمعنى الطلب ومع ذلك فتوقير الحق سبحانه وتعالى

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص ٥١٦

يستوجب ترك دعاء غيره والطلب منه، ومن يفعل ذلك - أى دعاء الغير - يكون قد ولج إلى ظلمات الغفلة، وهوت به الريح فى مكان سحيق.

12 - **القرآن الكريم يرفع الغفلة عن الكتب السابقة:**

قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (سورة الأنعام ١٥٦).

هذه الآية ترفع التعلل بالغفلة عن الكتب السابقة وهى من باب أولى ترفع الغفلة عن هذا الكتاب الكريم فلا حجة لأحد الآن وبعد الآن أن –يتعلل بالغفلة وعدم الإلمام بشريعة الإسلام.

13 - **الاستغراق فى الغفلة والغرق فى اليم:**

قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾(سورة الأعراف ١٣٦).

أرسل الله لفرعون وقومه كثيرا من الآيات الدالة على صدق نبى الله تعالى موسى عليه السلام، وعلى قوة وقهر الحق سبحانه وتعالى: منها إدخال الحياة فى العصا، إخراج اليد بيضاء من غير سوء - آيات مخيفة ملجنة - الطوفان - الجراد - القمل - الضفادع - الدم - ومع ذلك استكبر القوم واستغفروا فى الغفلة، فكان لابد من إغرافهم. وإلى يومنا هذا ترى أناسا يتنكبون من حطام ويستغرقون فى غفلتهم هذه فيغرقهم الله سبحانه وتعالى فى بحور من الهم والغم والأمراض.

ويضيق عليهم صدورهم فيغرقهم فى لجة الحياة التى شغلوا بها واطمأنوا لها، لقد عالج فرعون وقومه لحظة غرق، ولكن كثيرا من الناس لا يخرجون من غرقهم إلا بالموت، قد يكون هذا الغرق فى الشهوات أو اللذات المباحة أو غير المباحة ولكنه غرق على كل حال، ولابد للغريق من يد قوية تخرجه من الماء، وسفينة تتجة به إلى الشاطئ الآمن، ويد الله تعالى توحيده وسفينته المنقذة شريعته، فهل تتجه إليها.

14 - **الغفلة والصرف عن الخير والرشاد:**

قـولـه تـعـالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾(سورة الأعراف ١٤٦).

فى الآية السابقة عدة أعراض للغفلة منها:

١ –الصرف عن آيات الله تعالى.

٢ - التكبر فى الأرض بغير الحق.

٣ - عدم الاستفادة من رؤية الايات

٤ - عدم السير فى طريق الرشد بعد اكتشافه:

٥ - الاتجاه إلى الطريق الخطأ بعد اكتشافه مباشرة.

هذه الأعراض السابقة ترصدها الآيه الكريمة كأعراض للغفلة، وهى تحتاج إلى دراسة متعمقة – ليس مجالها الآن – وقد أشرنا إليها –هنا - من بعيد.

ويفسر الإمام ابن كثير الصرف بقوله: (أى سأمنع فهم الحجيج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين من الناس بغير حق أى كما اسكتبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل)[1]

يجعل الإمام ابن كثير سبب الصرف هو التكبر، والحقيقة أنه الغفلة بدليل قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أى بسبب أنهم تغافلوا، فالكبر عرض للغفلة وليس مرضا مستقلا كما يرى الإمام الجليل ابن كثير

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٤٧

15 - الفطرة تسقط عذر الغفلة:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾"وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» سورة الأعراب ١٧٢.

يخبر الحق سبحانة وتعالى: (أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم، أن الله تعالى ربهم ومليكهم. وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه)[1]. هذه الآية مع تفير الإمام ابن كثير لها توضح أن التوحيد مركوز فى فطرة العبد - وكل مولود يولد على الفطرة[2] -

من البداية، وتبين أيضا خطورة الغفلة، وكيف أن الله تعالى أغلق على الإنسان باب التعلل بها، ووضع فى فطرته ما يجذبه إلى الطريق القويم، وفوت عليه فرصة الاحتجاج بالغفلة، للغفلة تأثير كبير على الإنسان، لأنها الجانب المريح بالنسبة له، فهو يصنع منهاكهفا يحتمى به من توفير الحق وتكاليف الشرع ولذلك فالفطرة شاهدة على الإنسان وليست شاهدة له.

16 - مقاومة الغفلة:

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾(سورة الأعراف ٢٠٥)، بنية الحق سبحانه وتعالى نسبة صلى الله عليه ولم - والتنبيه لأمته أصلا –إلى أن الغفلة من الإنسان جهدا لمقاومتها وإزاحتها عن قلبه، فذكر الله تعالى فى النفس يشمل مطلق الذكر فى كل وقت، وخاصة

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٦١

(٢) حديث: "مامن مولود لا يولد على الفطرة" الحديث أخرجه أحمد فى صحيحه جـ٣ ص٤٣٥ ط المكتب الإسلامى ببيروت جمعه وأخرجه البخارى فى شرح.....

فى أول النهار وآخره، عند العودة للحياة من النوم، والذهاب له، ومنه ذكر الله تعالى فى النفس بمعنى ذكر فضل الله تعالى على الإنسان، وعرض الإنسان نفسه على شريعة الله تعالى، ومنه تذكره سبحانه وتعالى وهو من أجل أنواع الذكر الذى يذهب الغفلة، لأن أشد أنواع الغفلة ضررا أن يغفل الإنسان عن بارئه سبحانه وتعالى.

17 - **غفلة الخلق عن عبادة بعضهم البعض:**

قوله تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (سورة يونس ٢٩)، هذا نوع من الصراع ينشأ بين طائفتين فى عرضات القيامة طائفة تدعى أنها كانت تعبد طائفة من دون الله تعالى والطائفة المعبودة تستغيث بشهادة الحق سبحانه وتعالى، وتعلن أنها كانت غافلة عن هذا النوع من العبادة وهذا الضرب من التقديس، والحقيقة أن الغفلة قاسم مشترك بين الطائفتين، فهذه غفلت حتى أشركت وهذه غفلت عن إشراكها مع الله تعالى.

18 - **الغفلة والعلم:**

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة يوسف: ٣).

كان النبى ﷺ أميا ومصدر علمه الوحى الإلهى، ولم يمن له مصدر غير ذلك –السابقة على الوحى - فترة عدم العلم - بالغفلة ويقول سبحانه: - «إن كنت من قبله –أى القرآن - لمن الغافلين. ويؤخذ من فحوى الآية أن العلم والغفلة لا يجتمعان أبدا، إلا إذا كان العلم فى ظاهر الدنيا. والغفلة عن الآخرة، فى هذه الحالة يجتمع العلم والغفلة.

وهذ الإجتماع دليل غفلة أيضا، لأن المعلومات العلمية الحياتية التى تصرف الإنسان عن وجدانه الموحد (ألست بربكم) هذه المعلومات هى عوامل عفلة، وليست زادة علم، ومن هنا فإن العلم والغفلة لا يجتمعان. والنتيجة: أن أى علم لا يؤدى إلى خشية

الله تعالى وتوقيره لا يعتبر علما بالمعنى الأصيل لهذه الكلمة، فهاروت وماروت كانا يعلمان الناس السحر، وهذا على له قواعده وأصوله، ومع ذلك كانا يطلقان على علمهما الفتنة (نحن فتنة فلا تكفر) وبعض المنتسبين إلى الدعوة يشعرون بسعادة طاغية حين يطلق الناس عليهم ألقاب مثل العالم الجليل صاحب الفضيلة... إلخ

ويكتفى بهذه الألقاب عن النظر فى ماهية علمه. هل هو علم زاده خشية لله تعالى، وتفانيا فى خدمة أمته ودينه، هل حدد موقع الله تعالى من نفسه أم ازداد غرورا، وطفق يتعالى على خلق الله تعالى وهرع يجمع المال باللمز ويضرب المثل للناس فى الكنز، فهل يسمى علم هذا علما؟ أم نطلق على هذا العلم على الغفلة؟ أو غفلة العلم؟ ويرى الإمام الزمخشرى أن الغفلة ضد العلم فى الآية السابقة فيقول: (كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه أى من الجاهلين به، ما كان لك فيه على قط، ولا طرق سمعك طرف منه)[1].

وفى هذا النص يؤكد الإمام الزمخشرى قاعدة مناهضة الغفلة للعلم. ومرادفتها للجهل، إلا أنه يجب التنبيه إلى أن علم النبى ﷺ ليس كعلمنا وجهلهبالشئ ليس كجهلنا، ولكننا نبحث عن القاهدة، من خلال العطاء القرآنى الزاخر، لأن جهل النبى ﷺ . بالشئ يدفعه للبحث عن العلم به، أما جهلنا فإنه يكون أحيانا بعد علم وطريقا للمعصية أعاذنا الله تعالى منها. ومن كل غفلة تؤدى إليها.

19 - الغفلة المحمودة (الغفلة عن المعصية)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾«(ورة النور:٢٣).

الغفلة بمعناها الحقيقى تجاهل الإنسان لأمر معينتجاهلا يجعله لا يعلم عنه شيئا فى النهاية، فإذا ما تجاهل الإنسان الكريم المعصية أصبح لفرط تجاهله لها، لا يعلم عنه

(١) الإمام الزمخشرى: تفسير الكشاف جـ٣ ص ٦٢ طدار الصحف بدون

شيئا فى النهاية. فإذا ما تجاهل الإنسان الكريم المعصية أصبح افرط تجاهله لها، لا يشعؤ بوجودها فى المجتمع وعلى هذا جاء الوصف بالغفلة فى هذه الآية الكريمة، وهذا الوصف بالغفلة فى مقام الإطراء. ويكشف شيئا كثيرا عن ماهية الغفلة. وأنها لفرط التباسها بالإنسان تجعله محمودا إن غفلة المعصية مذموما أن غفل عن الطاعة

ويعرف الإمام الزمخشرى "الغافلات" بقوله: (السليمات الصدور والنقبات القلوب اللاتى ليس فيهن دهاء، ولا مكر، لأنهن لم يجرين الأمور، ولم يرزن[1] الأحوال، فلا يفطن لما تفطنله المجربات العرافات[2].

20 - الغفلة والمصير:

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة مريم ٣٩).

للإمام الزمخشرى رأيان فى لفظة الغفلة مع قضاء الأمر فى هذه الأية:

الأول: إن الغفلة كانت فى الدنيا وقضى الأمر وتحدد مصيرهم وهم لا يشعرون.

الثانى: أن قضاء الأمر تم فى الآخرة وساق فى ذلك حديثا للنبى ﷺ أنه سئل عن قضاء الأمر فقال: "حين يذبح الكبش والفريقان ينظران والإمام ابن كثير استدل أيضا بهذا الحديث على هذا النحو السابق فقال[3]

(عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ص: « إذا دخل أهل الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أبلج فسيوقف بين الجنة والنار: فيقال يأ اهل الجنة هل تعرفون هذا؟

(١) يرزن، رزن بالمكان رزونا الشئ رزنا رفعه ليعرف وزنه. المعجم الوسيط جـ١ ص ٣٤٣ صحيح اللغة العربية بدون تاريخ.

(٢) تفسير الكشاف جـ٢ ص ١٢ دار المصحف بكشافه جـ١ ص٩.

(٣) حديث إذا دخل أهل الجنة الجنة.. الحديث. الأمام أحمد فى مسنده والإمام البخارى فى صحيحة بشرح فتح البارى جـ٨ ص٤٢٨. ط المطبعة السلفية بدون. وفى صحيح مسلم رقم ٢٨٤٩ فى الجنة وصفة نعيمها جـ٤ ص ٢١٨٨ ط الحلبى ١٩٥٥م.

قال فيشرئبون وينظرون ويقولن: نعم هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح قال: ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» «ثم قرأ رسول الله ص: « وأنذرهم يوم الحسرة أذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) وأشار بيدة ثم قال: « أهل الدنيا فى غفلة الدنيا» هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخارى ومسلم ولفظهما قريب من ذلك[1]

لا أدرى لماذا اتجه كثير من المفسرين إلى اعتبار أن قضاء الأمر تم يذبح الكبش لأن ذبح لأن ذبح الكبش خاص بقضاء أمر الموت والحياة، أما قضاء الأمر فى الآية فهو وصول الإنسان إلى درجة من المعصية تجعله مستحقا لعذاب الله تعالى، وهذا يحدث وهو مازال غافلا سادرا فى غيه.

ويوضح ذلك إشارة رسول الله صلى وسلم بيده بعد الحديث وقوله: «أهل الدنيا فى غفلة الدنيا» أى ساء مصيرهم «وهم يحبسون أنهم يحسنون صنعا» وعلى هذا أرى أن الغفلة فى الدنيا، وأن قضاء الأمر خاص بالغافل يتم فى الدنيا. ويقصد هذا عجز الآية»وهم لا يؤمنون، لأنه لو كان قضاء الأمر فى الآخرة فإن الجميع يؤمنون لا محالة ولكن لا ينفع الغافل إيمانه.

21 - الغفلة والحساب:

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ (سورة الأنبياء: ١)

هذه الآية تنبيه آخر للبشر جميعا، بأن الحساب آت لا محالة ومع ذلك فأهل الغفلة معرضون عن كل نصح أو تنبية.

22 - الغفلة والندم:

قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (الأنبياء: ٩٧)

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٢٢ ط الحلبى.

فى هذه الآية فوائد سيكولوجية - نفسيه - لمعرفة عمق نفسية الغافل، فالغافل لا يفيق من غفلته إلا بالقوارع العظيمة، والنوازل الأليمة، أو جذبه بعنف يقطع عليه لذة الغفلة. وغفلة الملل الرتيب.

23 - **غفلة المتيقظ:**

قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا..... ﴾ (سورة القصص: ١٥).

هذه الآية نوع جديد من الغفلة ثم يرد قبل ذلك، وهو فى غفلة الناس وذهولهم عن كل جديد أو غريب أو متغير يمر أمامهم. لقد كان سكان المدينة موجودين فيها متيقظين حين دخلها نبى الله تعالى موسى عليه السلام، ولكنهم –لغفلتهم - لم يلتفتوا إليه، والتعبير القرآنى الجميل يصور هذه الحالة الذاهلة الغافلة، (على حين غفلة من أهلها) وكثير من الأحداث تقع بسبب عدم شعور الناس بشئ غريب، قبل وقوع الحادثة، إن الإنسان يأخذه شغله بالدنيا، يأخذ نفسه من نفسه حتى تراه مفتوح العينين، متيقظا سميعا، ولكنه لا يميز صوتا هاديا، أو شخصا قائما.

24 - **الغفلة والغطاء:**

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة ق٢٢).

هذه الآية تعطى كثيرا من أسرار الغفلة، ومن توفيق الحق سبحانه وتعالى أنها فى نهاية هذه السلسلة الموضوعية عن الغفلة فى القرآن الكريم، فالآية تذكر أن هناك غطاء على حواس الغافل. لا يرتفع إلا بعد زلزة الساعة الشئ العظيم.

فما هو هذا الغطاء الذى يحتاج فى كشفه إلى القيامة؟ ولماذا لا يرى الإنسان الحقائق إلا إذا أصبح بصره حديد؟ وهل يستطيع الإنسان أن يحد بصره بنفسه، وأن يجعله كليلا خاسئا حسيرا؟.

حول هذه الأسئلة بدور هذا البحث عن الذاتية الغافلة، ولكن قبل أن نستخلص النتائج نبدأ برأى المفسرين الأحلاء لتوضيح معنى كلمتى "غطاءك" "حديد" (لقد جعل الغفلة كأنها غطاء، غطى به جسده كله أو غشاؤة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئا. فإذا كان يوم القيامة تيقظ، وزالت الغفلة عنه، وغطاؤها، فيبصر مالم يبصره من الحق ورجع بصره الكليل عن الأبصار لغفلته حديدا لتيقظه[1].

يؤخذ من تفسير الإمام الزمخشرى رحمه الله تعالى أن الغفلة تصنع غطاء حول صاحبها كأنه خيمة تجعله لا يسمعولا يبصر الحقائق، ويعيش فى غفلة حتى تكشف بفعل القيامة فيعود بصره الكليل حديدا. ويقول الإمام ابن كثير: (لقد كنت فى غفلة من هذا يعنى من هذا اليوم"فكشفنا عنك فبصرك لليوم حديد" أى ترى، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرا حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك[2].

ونخلص من هذا بنتائج أهمها:

أولا: أن الغفلة تصنع غطاء حول الإنسان، ويقوى هذا الغطاء من الغفلة.

ثانيا: أن الحواس لها مهام دنيوية وأخرى أخروية إلا أن هذه المهام الأخروية تتعطل بسبب الغفلة، وتعطل الحواس يعد أكبر أعراض الغفلة، وأهم معضد لها. ولذلك تضعف الاستجابة عند الغافلين.

(ب) الغفلة و مسئولية الإستجابة.

الموقف الأول: إهمال الغافل ملكاته الموهوبة له.

(١) تفسير الكشاف جـ٦ ص٢٧ دار المصحف.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٢٥ ط الحلبى.

يقول الحق سبحانه وتعالى، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1].

فى هذه الآية يثبت الحق سبحانه وتعالى الحواس للذين يستحقون العذاب فى الآخرة ولكنه يثبت تعطل هذه الحواس عن الإدراك بسبب غفلتها. والآية الكريمة تجعل الغفلة سببا لتعطل الحواس عن الإدراك بسبب غفلتها. والآية الكريمة تجعل الغفلة سببا لتعطل الحواس عن الإدراك. وتجعل عدم الإدراك سببا للغفلة، والغفلة تعنى أنفصال الذات عن الموقف الذى تغفلة أو تراه أو تسمعه.

ولذلك يقول الإمام الرازى فى تفسير الآية السابقة: (إن الإنسان إذا تأكدت نفرته عن الشئ، صارت تلك النفرة المتأكدة الراسخة مانعة له من فهم الكلام الدال على صحة الشئ. ومانعة عن إبصار محاسنه وفضائله، وهذه حالة وجدانية ضرورة يجدها كل عاقل من نفسه، ولهذا قالوا فى المثل المشهور: حبك الشئ يعكس ويصم)[2].

وهذه الفقرة من تفسير الرازى تصف خمول الذات بالنفرة وهو وصف تترتب عليه المسئولية فى الثواب والعقاب، وليست المسئولية جبرية كما يرى فى عموم تفسيره لهذه الآيه[3]. إلا أنه أجاد وصف هذه الحالة بأنها حالة وجدانية تمنع الإنسان من الفاعلية، أو الإنفعالية مع ما يعقل أو يرى أو يسمع.

تفسير الكتاب:

يقول الإمام الزمخشرى عن الذين تحدثت عنهم الآية السابقة: (هم المطبوع على قلوبهم، الذين علم الله أن لا لطف لهم. وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٦٧ ط دار الفكر ط ث ١٩٨٥م.

(٣) أنظر ص ٦٤. ٦٥. ٦٦. ٦٧. من المصدر السابق

الحق، ولا ينظرون بأعينهم ما خلق الله نظر إعتبار. ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تفسير. كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون واستماع الاذان، وجعلهم لإغراقهم فى الفكر، وشدة إنخراطهم فيه، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم فى الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضى الله تعالى عنه إلى خالد بن الوليد، (أبلغنى أن أهل الشام إتخذوا لك دلوكا عجن يخمر. وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرءا للنار.

ويقال لمن كان عريقا فى بعض الأمور: ما خلق إلا لكذا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فى عدم الفقه، والاعتبار والتبور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون فى الغلفة. وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار)[1]

ويتجه الإمام الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآيه إلى أن الآية الكريمة تحدد صفات الذين خلقوا للنار، ولا تحدد أعيانهم. وهو عكس ما ذهب إليه الإمام الرازى من أن الذين خلقوا للنار لا تنفعهم طاعة، ولا تزيد فى عقابهم معصية لأنهم هكذا خلقوا للنار، والحقيقة أن هذا الإتجاه فى التأويل له خطره، وكان من الممكن حمل معنى الآية على معنى قوله تعالى: « وما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون»[2] فقد خلقهم جميعا للعبادة. ولكن بعضهم قد اختار المعصية وسار فى دربها، فكان من هؤلاء الذين لهم قلوب لا يفقهون بها، لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.

فإذا ما تجاوزنا هذا الصراع الفلسفى الذى فرضته ثقافة عصر الإمامين الجليلين وظهر فى تفسيرهما للقرآن الكريم، فسيبقى لنا بعد ذلك رؤيتهما العميقة لأغوار النفس البشرية.

(١) الإمام الزمخشرى. الكشاف جـ٢ ص ١٣١ - ١٣٣ ط الحلبى ١٩٧٢.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

وكيف أنها إذا خملت ورضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها أعرضت تماما عن الآخرة، وأصبحت لا تقبل دليلا عقليا عليها، ولا تصدق الأعين والأذان إذا رأت أو سمعت شيئا يدل على الآخرة.

تفسير الظلال:

يقول صاحب الظلال فى تفسيره لهذه الأية: (فهم لم يفتحوا القلوب التى أعطوها ليفقهوا - ودلائل الإيمان والهدى حاضرة فى الوجود وفى الرسالات تدركة القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة. لقد عطلوا هذه الأجهزة التى وهبوها، ولم يستخدموها، لقد عاشوا لا يتدبرون)[1].

تكلم المؤلف الجليل كسابقيه عن التخيير والتسيير إلا أن هذا البحث يركز على غفلة الذات وخمولها. ولذلك تم نقل الجانب الخاص بالخمول والغفلة فقط.

الموقف الثانى: تبلد الغافل فى مواجهة الحدث.

فى الموقف السابق تجلت الغفلة فى ترك الإنسان لملكاته الموهوبة من غير إستعمال صحيح، وفى هذا الموقف تتضح الغفلة من عدم فهم الإنسان للمعقول والمسموع والمشاهد أو فى عدم الاستجابة لمعقولاته، ومشاهدته ومسموعاته، أى الخمول والتبلد فى مواجهة الحدث. وهو ما يميز الذاتية الفاعلة، والمنفعلة، لأن الفاعلة تنشئ الحدث، والمنفعلة تستجيب له، ولكن الغافلة لا تتأثر به إطلاقا، بل تمضى فى الحياة بفطرة أصابها الضمور، وبفؤاد هواء، وبفرهراء.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن القصور فى الاستجابة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ

(١) الاستاذ/ سيد قطب. فى ظلال القرآن جـ٣ ص ٧٤ ط دار الشروق ١٩٨٧م.

سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

فى ظلال القرآن:

يقول صاحب الظلال: (يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله، ويذرهم التولى عنه، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تعالى تتلى عليهم فكأنهملم يسمعوها، أولئك الصم والبكم. وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات، وألسنة تنطق بالكلمات تنطق بالكلمات، أولئك الذين هم شر الدواب التى تدب على هذه الأرض لأنهم لا يهتدون بما يسمعون... إن التولى عن الرسول وأوامره ليبدو مستنكرا قبيحا، لا يقدم عليه إنسان له قلب يتدبر، وعقل يتفكر، ومن هنا يجئ ذكر الدواب فى موضعه المناسب ولفظ الدواب فى موضعه المناسب ولفظ الدواب يشمل الناس فيما يشمل، فهم يدبون على الأرض.

ولكن إستعماله يكثر فى الدواب من الأنعام، فيلقى ظله بمجرد إطلاقه، ويخلع على الصم البكم الذين لا يعقلون صورة البهيمة فى الحس والخيال، وأنهم لكذلك أنهم لدواب بهذا الظل، بل هم شر الدواب... لأن العقل قد يدرك، ولكن القلب المطموس لا يستجيب فحتى لو أسمعهم الله سماع الفهم، لتولوا هم عن الاستجابة، والاستجابة هى السماع الصحيح، وكم من أناس تفهم عقولهم، لكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب)[2].

يركز المؤلف فى الفقرة السابقة على خصائص الذاتية الغافلة - البهيمة - عدم الاستجابة - ترك السماع الصحيح - ويقول: (كم من أناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب)، وهذا الفهم للنص يلقى ظلالاعلى كثير من المسلمين المعاصرين وكيف أنهم مع بلوغهم الدرجات العلمية السابقة إلا أنهم لا يشعرون تجاه عقيدتهم

(١) سورة الأنفال: ٢٠ - ٢٣

(٢) الاستاذ/ سسيد قطب. فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١٤٩٣،

وأمتهم بأى شعور ينبئ عن الاستجابة والفاعلية. بل تراهم منصرفين إلى غاياتصنعوها فى عقولهم، ونسجوها فى خيالهم وعاشوها فى خيالهم وصدق الحق تعالى: «أولئك كالأنعام بل هم أضل» إن جنة كثير من الناس لا توجد إلا فى خيالهم وواقعهم من خلال غفلتهم – جهنم وبئس المصير، وقديما قال المتنبى: وأخر الجهالة فى الشقاوة ينعم.

تفسير الكشاف:

يقول الإمام الزمخشرى: (ولا تقولوا عن رسول الله ﷺ ولا تخالفوه وانتم تسمعون) تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا ﴾ أى أدعوا السماع ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين، فكأنهم غير سامعين، والمعنى، إنكم تصدقون بالقرآن والنبوة. فإذا توليتم عن طاعة الرسول فى بعض الأمور كقسمة الغنائم وغيرها كان تصديقكم كلا تصديق، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن، ثم: (إن شر الدواب) شر من يدب على وجه الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلها شرها، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ ﴾ فى هؤلاء الصم البكم ﴿ خَيْرًا ﴾ أى انتفاعا باللطف ﴿ لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ اللطف بهم حتى يسمعوا سماع المصدقين، ثم قال (ولو أسمعهم لتولوا)عنه: يعنى ولو لطف بهم لما تقعفهم اللطف. ولذلك منعم ألطافه، أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا)[1].

أحسن الإمام الزمخشرى حين ربط فى النص السابق بين السماع النافع الفاعل وبين التصديق، فيقول: « لأنهم ليسوا بمصدقين، فكأنهم غير سامعين «فأدخلالتصديق هنا كعنصر فعال فى نقل السماع الدينى إلى حركة موجبة فاعلة فى الأداء. وبين أن الغفلة كما تعتمد على الخمول والبلادة فهى أيضا ترتكز على عدم التصديق.

(١) الإمام الزمخشرى. تفسير الكشاف جـ٢ ص ١٥٠، ١٥١.

تفسير الرازى:

يقول صاحب التفسير: « أنه تعالى أمر بطاعة الله وبطاعة رسول الله، ثم قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ لأن التولى إنما يصبح فى حق الرسول ﷺ بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله، وعن معونته فى الجهاد، ثمقال مؤكدا لذلك ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يقبل التكليف وأن يلتزمه إلا بعد أن يسمعه. فجعل السماع كتابة عن القبول، ومنه قولهم سمع الله لمن حمده والمعنى ولا تكونوا كالذين يقولون بألسنتهم إنا قبلنا تكاليف الله تعالى، ثم إنهم بقلوبهم لا يقبلونها وهى صفة للمنافقين...

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ واختلفوا فى الدواب فقيل شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون ويقال لهم. ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون، وقيل بل هم من الدواب لأنه اسم لما دب على الأرض ولم يذكره فى معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم[1](١).

فى هذا النص إضافة إلى المعانى السابقة، لأنه جعل السماع كتابة عن القبول وأظهر على الرقص عند هؤلاء، وعدم السماع النافع، بأنها ترجع إلى عدم قبول تكاليف الدين أصلا. وهذا يلقى ضوءا على قصور الذاتية الغافلة عن الاستجابة وربط ذلك بعدم القبول.

(١) تفسير الرازى جـ٨ ص ١٤٧، ١٤٩

الفصل الثانى

دراسة الغفلة كمرض عضوى

الغفلة العقلية - التفاعلات البيولوجية:

يذكر القرآن الكريم كثيرا من من الحقائق الأساسية عن النفس الإنسانية بكل أقسامها الفاعلة والمنفعلة والغافلة.. إلخ إلا أن كثيرا من مفسرى القرآن الكريم ينظرون إلى هذه الحقائق نظرة أدبية فيفسرون الحديث عن النفس السوية بأنه من باب المدح والرضا، وينظرون للحديث عن النفس المريضة على أنه من باب الذم. وهم - رحمهم الله تعالى جميعا - غير ملومين، لأن القرآن الكريم لا يكشف كل أسراره فى زمن واحد، بل يتجدد عطاؤه مع كل زمن جديد، وإن كان يعطى فى كل زمن ماض ما فيه الكفاية للهداية.

وفى حديثة عن النفس الغافلة التى لا تستجيب أعطى القرآن الكريم كثيرا من الحقائق العلمية الأساسية التى تجاوزت كل ما وصل إليه علم النفس وهيمنت عليه، وصححت ما وقع فيه من أخطاء.

فعلم النفس يؤكد أن الاستجابة درجة من درجات رقى الحيوان، فكلما كانت الاستجابة قوية، كان هذا الحيوان المستجيب أرقى فى نوعه، وكلما كانت الاستجابة ضعيفة أو رديئة كان ذلك دلالة على بدائية هذا الحيوان، وبلادة طبعه.

ويأتى القرآن الكريم فيصف الذين لا يستجيبون بأنهم أدنى منزلة من الحيوان فى الوصف وأضل سبيلا فى السعى والنهج، وهو بذلك يضن بوصف الحيوانية على الإنسان

الذى لا يستجيب ويجعلها منزلة لا يرقى إليها، ولا يعتمد، فالغفلة فى القرآن الكريم ليست وصفا نفسيا للإنسان فى سلوكه ووجدانه، بل هى تفكك عضوى فى بنيانه وكيانه.

يقول الله تعالى عن الذين لا يستجيبون: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

ويقول الله تبارك وتعالى عن الذين عطلوا حواسهم عن الإدراك الصحيح فاستحقوا جهنم ساءت مستقرا ومقاما: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2].

فهؤلاء لهم عقول وأعين وآذان وهى من الناحية العلمية ليست معطلة عن الإدراك، ولكنها تجمدت عند الإدراكات البدائية التى لا تقوم الحياة إلا بها فهم قد عاشوا الحياة لمجرد أنها حياة، أوعاشوا «الحياة بالحياة» ولم ينطلقوا إلى الهدف من الحياة، إلى إدراك المجردات والغيبات ويربطون بين العلاقات وبين الأشياء المشاهدة، والأشياء المستفادة منها.

إنهم عاشوا الوجود كوجود موجود، ولم تتجه عقولهم إلى وأهب هذا الوجود –الحق سبحانه وتعالى. ومثلهم فى ذلك كمثل رجل اشترى سيارة وأدخلها إلى مكان معد فى بيته، ووضح بداخلها الوقود، ثم حرك مفتاح الإدارة، فتحركت أجهزة هذه السيارة، ولكنه أبدا - لم ينطق خارجا لهدف ينشده، وكأنه أدرك أن مهمة السيارة محصورة فى عمل أجهزتها فقط، وليست لوصول الإنسان بأهدافه العملية فى الحياة، فالإنسان الذى لا يستجيب لربه يعيش حياته من غير هدف، وينصرف عينها من غير أمل ولذلك يقول الله تعالى فى هؤلاء. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

(١) سورة الأنعام: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال: ٢٢

إنهم يعقلون كثيرا من الأشياء ولكنها ليست الأشياء التى يريدها الله تعالى، الأشياء التى ترقى الذات، وترقى بها إلى درجات الخلافة الكاملة لله سبحانه وتعالى.

الاستجابة العضوية وأجهزتها فى كتب على النفس:

من الأهمية بمكان الحديث عن الاستجابة وأجهزتها فى الجسم الإنسانى والعوامل التى تؤثر عليها، قبل الحديث عن الاستجابة من الناحية الروحية لأن الذات الجسدية هى وعاء الذات الروحية. وإذا طرأ على الذات الجسدية ما يمنعها من الوعى والإدراك ارتفع التكليف كما فى حالة النوم والجنون وقبل التمييز بالنسبة للأطفال، رغم أن هدف التكاليف الرقى بالروح والحفاظ على الجسد لهذا الغرض أيضا، وليس لمجرد الحفاظ، من غير نسبته لهدفه.

والحقائق العلمية عن الاستجابة وأجهزتها مثبوتة فى كثير من كتب علم النفس، وكتب الأمراض العقلية، إلا أننى سوف أقوم بتلخيصها من عدد قليل من المراجع مع الحذف أو الإضافة إن اقتضى الأمر. وسوف أذكر هذه المراجع فى نهاية التلخيص.

سنرى فى دراسة الجملة العصبية أن تعقدها يزداد من الحيوانات الدنيا إلى الحيوانات العليا، فتزداد تبعا لذلك قدرة الإنسان على التفكير، وعلى العمليات النفسية الكبرى، كما سنرى أن الهرمونات التى تفرزها الغدد هى سبب الكثير من الأفاعيل النفسية، ويتقرر فى أذهاننا أن الجسد والنفس كل موحد مظهره الشخصية الفردية كما يتقرر فى أذهاننا أنه لا مجال لدراسة النفس إلا بالتعرف على الجسد وأخذه بعين الإعتبار. كما نشير إلى أهمية الحواس المختلفة فى الأفاعيل النفسية.. وقديما قيل بحق، أن الحواس هى نوفذ العقل بوسطها بتكون الإدارك، وعن طريقها بتصل الإنسان بالعالم الخارجى.

المؤثرات والإستجابات:

ليست الأفعال النفسية الإ الاستجابات العصرية للمؤثرات المختلفة ويرمز إلى هذا الوضع بالقوس(م - ع - س) وتعنى (م) المؤثر و(ع) العضوية و(س) رد الفعل أو الاستجابة.

فى امكاننا ونحن ندرس الأفاعيل النفسية أن نصب انتباهنا على المؤثرات أو الاستجابات لأنها تصدرعن العضوية. لذلك كان من الأهمية بمكان أن ندرس هذه العضوية. لنستطيع أن نتعرف على هذه الاستجابات. وهذه العضوية يجب أن تكون مستعدة، أى مزودة بعدة تمكنها من التقاط المؤثرات، وهذه العدة تسمى الحساسية، وهى تحدث عن طريق وجود حواس مزودة «بالجوايذ» وتسمى هذه الجوايذ بأعضاء الحس أى «الحواسى» فهناك جزء من العين خاص، عمله التأثيربالمؤثر الضوئى لجعل عملية الإبصار ممكنه، وكذلك فى باقى الحواس، وهذا الأثر ينتهى عند أعضاء تتلقاه وتكون رجعا (استجابة) له وهذه الأعضاء تسمى «بالنوابذ» ويصل عادة بين «الجوايذ» أعضاء الحس، بين (النوابذ). أعضاء الحركة مركزينقل هذا الأثرويساعد على إيصاله من أعضاء الحس إلى أعضاء الحركة..

ويتم كل ذلك بفعل ذبذبات، أو اضطربات (كهروكيمائية) وهى التى تسمى بالمسألة العصبية (التيار العصبى) وتنتقل من خليه إلى أخرى من الحواس إلى أعضاء الحركة، وعلى شكل قفزات، أو انفجارات متتاليه، تشبه الشرارات التى تحدث حين تتقابل أسلاك الكهرباء الموحية.

ويلاحظ أن المسألة العصبية حين تعبر أعضاء الحس وتصل إلى أعضاء الحركة تستجيب لها هذه الأعضاء. فتتقلص العضلات وتفرز الغده ويزداد إفرازها أو يقل. والوظيفة الأساسية للجملة العصبية[1] وهى نقل السيالة العصبية من أعضاء الإحساس إلى أعضاء الحركة والواقع أن الجملة العصبية تختلف من حيوان إلى آخر تصل إلى ذروتها فى الإنسان. وبصورة خاصة فى القشرة الدماغية، التى يتوقف على ردود أفعالها معظم الأفاعيل النفسية الراقية والتفكيرية، منها بصورة خاصة. وعن طريقها يمكن التفكير والتذكر والتخيل.

(١) حسية تنقل الأثر من أعضاء الحواس إلى الحبل الشوكى والدماغ.

الجملة العصبية:

الجملة العصبية آلة مختصة بالنقل، فهى تنقل الأثر من الجوايذ (أعضاء الحس) إلى النوابذ (أعضاء الحركة) ففى الأمية ينقل الجسد (بكامله) هذا الأثر. وفى الحيوانات الأكثر رقيا، توجد عضلات تتقلص حين يقع عليها المؤثر، وفى الحيوانات التى تليها فى الرقى توجد بعض الألياف العصبية التى تصل بين العضلات الواقعة تحت السطح الظاهر، والجوايذ الموجودة فى الجلد، ففى حيوان شقائق نعمان البحر. تكون الجملة العصبية عبارة عن ليف عصبى يحمل الأثر من الجوايذ إلى العضلة مباشرة، فإذا ذهبنا إلى حيوان أرقى نجد أن الأثر ينتقل من عضو الحس إلى العضلة عن طريق شبكة من الألياف العصبية.

الخلية العصبية:

تتكون الألياف العصبية من الخلايا العصبية التى تستطيع كل منها أن تعمل منفردة وتعطى أثرا مثميزا لمؤثر معين يقع على جزء معين من الجسد وهذا ما يحدث فى حالة تعرض أصبع لشئ محرق، وسحب اليد نتيجة لذلك، والخلية العصبية عبارة عن جسم خلية واستطالات من الطرفين. وتجتمع هذه الخلايا فتكون ما يسمى بالليف العصبى، ثم تجتمع الألياف العصبية فتكون ما يسمى بالعصب.

والخلايا العصبية ثلاث أنواع:

١ - الجملة العصبية هى العلاقة بين الجوايذ والنوابذ، أى بين (الحس والحركة) أو الأدلة التى تقل الأثر من الحس إلى الحركة أو من المصل إلى الفهم ثم الحركة وهذه معطلة عند الذاتية الغافلة فهى تفهم لكنها لا تعقل أى لا يتحول إلى الاستجابة.

٢ - وحركية تنقل الأثر من الحبل الشوكى أو الدماغ إلى أعضاء الحركة.

٣ - ومواصلة أو مركزية موجودة فى الدماغ أو الحبل الشوكى وتقوم بالوصول والربط بين أعضاء الحس وأعضاء الحركة.

إن الألياف العصبية فى تجمعها وتكوينها للأعصاب تكون مغلفة بمادة شحمية. تفصل بينها ويكون لونها أبيض أو يميل إلى البياض والتيارات المختلفة التى تمر فى الليف العصبى لها نفس الشدة مهما اختلف طبيعة التيار أو شدة المؤثر.

وعندما يستجيب اليف العصبى فإما أن يستجيب استجابة كاملة أو لا يستجيب تماما ويسمى هذا المبدأ (كل شئ أو لا شئ) وصدق الحق تعالى: "لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها" وبعد أن تستجيب الخلية العصبية للمؤثر يبقى هناك وقت لا يمكن خلاله إثارة الخلية بمؤثر آخر يسمى بوقت التمرد المطلق، وأقل مدة له هى جزء من الثانية.

وحين يشار الليف العصبى فإنه يصبح أشد قبولا للنفوذ فيسمح للشوارد الإيجابية بالمرور والإتجاه مع الشوارد فيمر التيار الكهربائى السالب فى اليف. وهذا التيار هو ما يسمى بالسيالة العصبية أو التيار العصبى وتكون سرعة انتقاله مختلفة باختلاف حجم الألياف. وتبلغ هذه السرعة فى المتوسط أربعة أميال فى الدقيقة الواحدة وبعد مرور التيار فى منطقة معينة بمدة قصيرة، تعود حالة الشوارد إلى ما كانت عليه مستعدة لمرور تيار آخر:

الوصلة:

والوصلة هى المنطقة الموجودة بين طرفى خلية عصبية وخلية عصبية أخرى، لذلك فالسيالة العصبية (التيار الكهروكيميائى) تتبطأ حين يمر بالوصلة، لأن التيار يجب أن يقفز عبر الوصلة لكى يصل إلى الخلية العصبية الثانية.

وللوصلة وظيفتان هما: التسهيل نوعان تسهيل مكانى: يحدث حين ترد الدفعات العصبية على ليف عصبى ونكون شدتها غير كافية لعبور الوصلة، وتبقى عاجزة عن العبور إلى أن تصل دفعات أقوى وأكثر[1].

(١) يمكن التنظير هنا للذاتية الغافلة: أن استجابتها تظل ضعيفة إلى أن يرد إليها مؤثر قوى فيدفعها دفعا للاستجابة.

ويحدث التسهيل الزمانى: حين تكون الدفعة بحد ذاتها أضعف من أن تستطيع عبور الوصلة، ولكنها بتتاليها مرات عديدة تستطيع عبور الوصلة[1] ومن فوائد الوصلة المنع العصبى، أى منع الاستجابة لمؤثر آخر طالما بقى تأثير المؤثر الأول، وقد قام العلماء بعمل تجارب لذلك على الضفادع فوجدوا أن الضفدع حين تجرح رجله يقفز، أما حين يكون مشغولا بالفعل الجنسى فإنه لا يقفز، فكان العمل الجنسى منع الضفدع من الاستجابة[2].

الأعصاب:

وهى مجموعة من الألياف يشبه كل منها السلك الكهربائى، وما المادة البيضاء الدهنية التي تغطى كثيرا من الألياف فى الجملة العصبية إلا عوازل للفصل بين الليف والآخر.

والعصب البصر بعند الإنسان والذى يحمل الآثار الضوئية من الشبكية إلى الدماغ سلك مؤلف من ٤٠٠ ألف ليف منفصل بعضها عن بعض إلا أنه من أكبر الأعصاب فى الإنسان، أما الأعصاب الباقية فهى مكونة من عدد كبير من الألياف. زكلما كان المؤثر شديدا على أداة الحس، استجاب لذلك عدد أكبر من الألياف العصبية.

أقسام الجملة العصبية:

تنقسم الجملة العصبية عند الإنسان إلى قسمين رئيسين هما الجملة العصبية المركزية. والجملة العصبية المحيطة، وتنقسم المركزية إلى:

١ - الدماغ: وهو مؤلف من المخ والمخيخ وجزع الدماغ المؤلف بدوره من الدماغ المتوسط والبصلة السيسائية. أو النخاع المستطيل.

٢ - الحبل الشوكى.

---

(١) تكرار الموعظة للذاتية الغافلة (فذكر إنما أنت مذكر).

(٢) وكذلك الإنسان لو تخيل العذاب والغى والسمع وهو شهيد رجع من غيه أما إذا سمع لموعظة وهو غافل القلب مشغول بالدنيا لم يتأثر بها.

أما الجملة العصبية المحيطة فتتألف من الأعصاب المخية الشوكية ثم الجملة العصبية المستقلة (الودية والبارودية)

توضيح الجملة العصبية

(أ) المخ:

فى كثير من الحيوانات التى تنحصر بين الأسماك والطيور يحتل المخ جزءا صغيرا من الدماغ وتنحصرأهم زظائفه فى حاسة الشم. إلا أن الشم وما ينتج عنه من ثناء نسيجى يتضاءل كلما تقدمنا فى سلم "التطور"[1] الرقى ففى الدماغ البشرى يكون الفصان الشميان مطمورين (مندرجين) تحت المخ الذى يفوقهما فى الحجم كثيرا كما أ النسيج الشمى المساعد يكون صغيرا، ومع زيادة حجم المخ تحدث تغيرات كثيرة من سطحه، فسطح دماغ الفئران والأرانب مستو ناعم. وفى القطط والكلاب يبدأ التجمد فى القشرة الدماغية ويمكن القول أنه كلما إزداد رقى الإنسان إزداد تجمد قشرة دماغه، وتعتبر القشرة الدماغية هى أهم جزء من أجزاء المخ.

(ب) المخيخ:

معظم وظائف المخيخ غير معروفة للعلماء حتى الأن، إلا أنه يرتبط بالمهارات التى تحتاج إلى تناسق عدد كبير من العضلات كالسباحة والمشى والكلام والكتابة.

وتبدأ فاعلية المخيخ من دفعات عصبية تأتى عن طريق الجوايذ الحركية والسكونية. ويحافظ المخيخ على توازن الإنسان أثناء السير والنوم[2] على السواء. والمخيخ بيضاوى الشكل وهو أصغر من المخ، وموقعه اسفل الجمجمة، ويتصل بالمخ من أسفل، وإزالة المخيخ لا تؤثر على الوظائف الأساسية للإنسان ولكنها تسبب فقدان التوازن.

(١) يتأثر كثير من علماء العرب بعلم النفس الغربى ولذلك تظهر فى كتاباتهم نظرية التشوه والإرتقاء لداروين. أنظر النشوء لداروين.

(٢) يحافظ المخيخ على توازن الإنسان أثناء النوم فلا يسقط من فوق سريرة رغم أنه يتقلب كثيرا.

(ج) جزع الدماغ:

يحتوى جزع الدماغ على مراكز عصبية متعددة كثيرة التعقيد، تشبه آليات اللوحة الكهربائية، وتعمل هذه المراكز على النفرق بين الاحساسات الواردة وتوزعها إلى

مراكزها المختصة. والوظيفة الأساسية لجزع الدماغ هى الإهتمام بأنواع السلوك اللاشعورى الروتينى وهو يتكون من البصلة السيسائية، والحدبة الحقلية، والدماغ المتوسط والتلاموس، والهيبوتلاموس، والجسم المخطط.

(د) القشرة الدماغية البشرية:

تتصل القشرة الدماغية بجزع الدماغ والحبل الشوكى بواسطة ألياف عصبية حسية وحركية، ومما يجدر ذكره أننا نجد نوعين من النباتات فى القشرة الدماغية:

النوع الأول: فراجين نهائية للمحاوير تأتى من التلاموس وغيره من مراكز جزع الدماغ وتنتهى فى القشرة الدماغية، وهى تحمل تيارات عصبية حسبة إلى المركز العصبية الحسية المختصة على القشرةة الدماغية.

النوع الثانى: استطالات أو فروع خلايا عصبية صادرة عن المناطق الحركية للقشرة الدماغية، ومنتهية فى المراكز الدنيا وفى النوابذ. وبعض الألياف الهابطة تذهب إلى التلاموس، ومن هناك إلى المجسم المخطط والمراكز الأخرى. وهناك ألياف غير الألياف السابقة تسير مباشرة من القشرة الدماغية إلى الحبل الشوكى.

ويمكن تعيين مناطق حسية على الفصوص، تتلقى الإحساسات الواردة من أجزاء الجسد بواسطة الأعصاب الحسية، والتيارات الواردة إلى هذا الجزء من الجلد تستطيع فى الظروف العادية إعطاءنا الفكرة الأساسية عن الحرارة واللمس مثلا.

والخلايا الحركية فى القشرة الدماغية كبيرة نسبيا، وتوجد على شكل هرم ولذلك تسمى الخلايا الهرمية. وتخريب هذه الخلايا يؤدى إلى تخريب محاويرها. حتى تصل إلى جزع الدماغ

والنخاع الشوكى، والساحة الحركية لنصف الكرة الدماغية تضبط الحركة فى الجهة المقابلة من الجسم والعكس صحيح أيضا. وليست القشرة الدماغية مركزا للحس والحركة فقط ولكنها وبواسطة الخلايا العصبية المركزية مركز للربط بين الحس والحركة أيضا. فهى تربط بين أنواع الحس وضروب الحركة. ومن هنا يتضح مدى أهمية القشرة الماغية البشرية[1].

الغدد الصماء:

الغدد الصماء من المراكز الخطيرة فى الجسد الإنسانى التى تؤثر على النشاط العقلى وتمنع الاستجابة –فى الحالات المرضية - وتؤدى إلى الغفلة المرضية وعدم الاستجابة الشعورية وسوف نلخصها فيما يلى:

(أ) الغدد الإدرينالية:

يوجد منها فى الجسم الإنسانى غدتان صغيرتان يقع كل واحدة منهما فوق الكية والجزء الأوسط من الغدة يقال له اللب الإدرينالى. ويفرز الإدرينالين. والنودارينالين.

والجزء الخارجى من هذه الغدة يقال له القشرة الإدرينالية. أو الحاء الإدرينالى، ويفرز مادة: السيروبدات، أ, شبيهات الكورتيزون. وهذه الإفرازات فى الحالات المرضية تعتبر عوامل مساعدة فى إحداث المرض العقلى. عندما يسوء آداء القشرة الإدرينالية فيصبها الإنحلال فيصاب الإنسان بمرض أديسون: أو يزيد نشاطها عن الحد اللازم فيصاب بمرض كوشنج، وكلاهما مرضان جسيمان ينطويان فى العادة على أعراض عقلية.

---

(١) د. فاخر عاقل. علم النفس من ص ٤١: ص ٧٧ طدار العلم للملايين ط سادسة ١٩٧٩. نقل بتخليص وتصرف وانظر فى ذلك أيضا:

- د. عبدالمنعم الحفنى موسوعة علم النفسوالتحليل النفسى ط مكتبة مدبولى ١٩٧٥.

- د. لويس كامل ملكية. علم النفس الاكلينيكى من صـ١٦٩ إلى ص ١٩٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

ويتميز مرض أديسون: بضعف عضلى عام، اضطراب فى الهضم تلون الجلد بلون برونزى فريد، ومن أعراضه أيضا: التبلد، الخشية، الأكتئاب. والهلاوس والهذيان القابلية للتهيج، الهذاءات، عدم الاستقرار، الخلط الذهنى، صعوبة التركيز.

ومرض أديسون إذا لم يعالج يؤدى إلى الموت فى نهاية المطاف وأما مرض كوشنج فمن أعراضة: القابلية للتهيج، قلة الرغبة فى التعاون نوبات البكاء، الهياج.

وفوائد الغدد الادينالية مساعدة الإنسان فى تحمل الضغوط والمواقف العصبية. فإذا ما تعرض الإنسان لموقف صعب فإن هذه الغدد –فى الحالات السوية - تزيد من إفراتها لتساعد الإنسان على التكيف مع هذا الموقف وعندما يصاب الإنسان بمرض نفسى أو عقلى فإن إستجابة هذه الغدد للمؤثرات الخارجية تقل أو تنعدم تماما. وبذلك تتحدد العلاقة الوثيقة بين الغدد الإدرينالية والاستجابة للضغوط.

فشل الغدد الإدرينالية يسبب الأمراض العقلية كما سبق. ولكنه أحيانا يكون نتيجة لها، لأن كثرة الضغوط الناتجة عن الأمراض العصبية والعقلية تجهد الغدد الإدرينالية من كثرة الإستجابة المتكررة.

(ب) الغدة الدرقية:

يترتب على نفس إفراز هذه الغدة نوع من التأخر العقلى يقال له: القصاع، غير أن الزيادة فى إفراز هذه تربط دائما بمرض «بازدو» ومن أعراض هذا المرض: تضخم الدرقية، ارتفاع نسبة التمثيل الغذائى وبعض الأعراض العقلية مثل: القلق، تقلبات مزاجية، القابلية للتهيج، القابلية للاستشارة، إلا أن هذا الارتباط بين إفراز الغدة الدرقية وهذه الأعراض لم يثبت يقينا وإن كان بعض الباحثين يجزم بحدوثه، إلا أن هؤلاء قلة من الباحثين فى هذا المجال.

(ج) غدة البنكرياس:

اشتهر الخلل فى إفراز غدة البنكرياس بمرض السكر –الجانب الجسمى منه على الأقل - إلانه لوحظ حدوث الاكتئاب عند مرضى السكر أحيانا بمقدار يتجاوز الاكتئاب الناتج عن المرض عند بعض الأفراد، ولذلك فبعض الأطباء يستخدم مادة الأنسولين التى يفرزها البنكرياس لعلاج الحالات فى الأمراض العقلية، ومن هنا تثبت العلاقة بين غدة البنكرياس والأمراض العقلية، ولو من بعيد بعض الشئ.

(د) الغدد جارات الدرقية:

ظهر كثير من الحالات التى تتراوح بين الخلل العقلى، والإصابة العضوية فى المخ وقد صاحب حدوث هذه الحالات اضطرابات فى الغدد جارات الدرقية، إلا أن العلماء يعتبرون اضطرابات الغدد جارات الدرقية عوامل مساعدة فى الأمراض العقلية وليست سببا مباشرا لها.

يبقى بعد ذلك أن نذكر بعض الحالات التى تؤدى إلى الأمراض العقلية من هذه الحالات:

- **عامل التسمم**: لأن أى مادة سامة تدخل إلى دم الإنسان يكون لها تأثير على قواه العقلية.

- **عوامل الأمصال**: تؤدى زيادة الأمصال فى الجسم الإنسانى أو الخطأ فى إعطائهال إلى بعض النتائج الخطيرة على مخ الإنسان ومن ثم قواه العقلية وطريقة استجابته للمؤثرات الخارجية.

- **عوامل الهرمونات**: إن استعمال الهرمونات من غير نظام دقيق يسبب أيضا كثيرا من الاضطرابات النفسية والعقلية على السواء[1].

(١) (١) ريتشارد "م" سرين، علم الأمراض النفسية والعقلية من ص ٢٢٥ إلى صـ٢٣٦ ط دار النهضة العربية ١٩٧٩ نقل بتلخيص وتصرف وأنظر فى ذلك أيضا.

ومن هنا يتضح دور الجانب الجسدى من الإنسان فى التأثير على استجابته التى تجعله حيا مستجيا أو ميتا غافلا، فالجهاز العصبى له دور، والغدد لها دور، وبعض الأدوية والمواد السامة لها دور، وكل ذلك فى النهاية يسبب أو يساعد على الغفلة والبلادة النفسية.

إلا أن بعض أنواع الغفلة الناتجة عن المرض تغفر لصاحبها. وهذا ما دفعنى إلى إلقاء الضوء على هذا الجانب من الغفلة فى الوحدة الثانية من هذا البحث، لأن البحث يدور هنا حول الذاتية الغافلة بسبب المرض ويلتمس لها الأعذار ليخرجها من الذاتية الغافلة بسبب ترك مهابة الجبار، والتجافى عن دار للقرار...وبئس القرار.

- الدكتور / مصطفى فهمى دراسات سيكاوجية التكيف من صـ٢٣٩ إلى صـ٢٧٤ طمكتبة الخانجى ١٩٧٦م.

- سعد حلال المرجع فى العلم النفس من صـ٢٢٩ إلى ص ٢٩٣ ط دار الفكر العربى ١٩٨٥م.

- د.محمود السيد أبو النيل. الأمراض السبكوسوماتية من ص ٣٤٩ إلى ص ٣٧٠ ط مكتبة الخانجى ١٩٨٤م.

- د.عزيز فريد. الأمراض النفسية العصبية من ص ١٤ إلى ص ٤٣ ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٤م.

الفصل الثالث

الذاتية الغافلة وكينونتها

كينونة الذاتية الغافلة هى: فى إيجاز - ماهيتها، فاعليتها، آثارها، ولذلك ستدور هذه الوحدة، من هذا البحث حول هذه الأطروحات الثلاثة، حتى تعم الفائدة من دراسة الذاتية الغافلة.

(أ) ماهية الذاتية الغافلة:

للذاتية الغافلة ماهية تتكون عن طريق الغفلة حتى تصير هوية للغافل وتأتى هذه الماهية نتيجة مباشرة لتراكمية الذنوب، والغفلة عن خطرها، وإذا كنا فى حاجة ماسة إلى علم النفس الوضعى للكشف عن ماهية الذاتية الغافلة، فإننا فى أمس الحاجة إلى علم النفس الوضعى للكشف عن ماهية الذاتية الغافلة، فإننا فى أمس الحاجة إلى كلمات الله تعالى الفاصلة، فهو خالق النفس وبارئها، وإلى توجيهات سيدنا رسول الله ص، فهو الذى تعلم من ربه كثيرا من أسرار النفس البشرية.

أضف إلى ذلك أنه قد تحققت فيه تجربة النفس الإنسانية الرائدة فى الطاعة المشرقة بالإيمان، وهو بهذه الخاصية الذاتية أقدر الناس على فهم أعماق هذه النفس البشرية المحيرة الاستكناء المجمدة الكنه.

يقول الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

(١) سورة المطففين: ١٤

يقول الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية: (أى ليس الأمر كما زعموا، لا كما قالوا: أن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله على رسول الله ص، إنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين، الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ والرين يعترى قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين[1].

ويقول الأستاذ / سيد قطب فى تفسير هذه الآية: (أى غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من الإثم والمعصية. والقلب الذى تمرد على المعصية ينطمس ويظلم، ويرين عليه غطاء كثيف، يحجب النور عنه. ويحجبه عن النور ويفقده الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت[2].

وتدور معظم أراء السادة المفسرين حول فحوى هذين الرأيين فى تفسير هذه الآية الكريمة، ومجمل هذه الآراء أن الغفلة تتكون فى بداياتها الأولية نتيجة تراكمية الذنوب على قلب العبد.

من هنا نصل إلى الخيط الأول الموصل إلى استكناه ماهية الغفلة، فهى ليست سببا وإنما نتيجة ليست فطرية فى الإنسان، ولكنها مكتسبة له، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ص: "إن العبد إذا أذب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه: فإن تاب منها ثقل قلبه. وإن زاد زادت "[3].

هذا الحديث الشريف يوضح الطريقة التى تنشأ بها الغفلة عند الذاتية الغافلة، التى تنقلب إلى ذاتية جاهلة، بعد علم أو فطرة بادية، ولكنه ﷺ يربط السبب والنتيجة

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص ٤٨٥ دار الشروق

(٢) الأستاذ / سيد قطب فى ظلا القرآن جـ٦ ص ٣٨٥٧ ط دار الشروق.

(٣) الإمام الترمذى فى سننه واللفظ له. ورواه ابن ماجه وفى سنه جـ٢ ص ١٤١٨ كتاب الزهد باب ذكر الذنوب ط دار الفكر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى.

فى الحديث الشريف بآية القرآن فى حديث آخر. فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ص: «إن العبد إذا أخطأ خطيئته نكث فى قلبه نكبتة سوداء، فأن هو نزع واستغفر وتاب نقل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه فهو القرآن الذى قال الله تعالى: « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»[1].

إذن هناك توافق وتضافر بين القرآن الكريم والسنة الشريفة فى شرح ماهية الغفلة وأنها تأتى نتيجة الران المتراكم على قلب العبد. ولعل التعبيربيكسبون فى الآية الكريمة له دلالة علمية عميقة فى شمول الكسب لكل أنواع الذنوب الظاهرة والباطنة على السواء والقلب هو مكان الاستجابة مع العبد فكل ران يؤثر عليه، فمنه يخرج منهاج الفطرة الذى ركزه الله تعالى فى الإنسان وإليه يتجه خطاب الالتزام. إذا خرج عن منهاج الفطرة، أى أن توجيه الإنسان الذاتى - الفطرى - يأتى من القلب. وتوجيه الإنسان الخارجى يعود إلى القلب، فكان القلب مرآة تشع النور وتستقبله فى آن واحد، والقلوب تتفاوت فى صفاء مرآتها، وفى مقاومتها للأكدار، فهناك الوين للعصاة. ويسبب الإظلام التام، والغيم للأبراروبسبب ضعفا جزئيا فى الإبصار. وظلالا شفافا على البصيرة، ويبقى الغين وليس له أثر تدركه الحواس، ولا تأثير عليها. ولكن له وجود تستشعره البصائر لفرط شفافية القلب وصفاته.

وهذا يفسر قوله ص: «إنه ليغان على قلبى. وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة»[2].

هذا الحديث الشريف لا يثبت استعداد النبى ﷺ لفعل الذنوب كما يوهم النص، ولكنه يثبت حرصه ﷺ على حلا، قلبه الشريف بالاستغفار، وتقوية الاستجابة فى كيانه الطاهر بالاستغفار.

---

(١) الإمام النسائى فى سننه واللفظ له... رواه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٧٥ خجيث رقم ٢٧٠٢ ط الحلبى، ورواه أبو داود فى سننه جـ٢ ص ١٧٧ رقم ١٥١٥ نشر محمد على السيد –حمص - سوريا.

(٢) صحيح مسلم جـ٤ ص ٢٠٧٥ حديث رقم ٢٧٠٢ ط الحلبى ١٩٥٥م.

ويعلمنا أن هناك مجهودا متزايدا متطلب من العبد. لكى يحافظ على درجة من اليقظة تجنبه الغفلة، وما ينتج عنها من مخاطر، ومن بينها عدم التلقى عن الله تعالى، وعن رسول الله ص، والحواس العادية لا تستطيع التلقى عن الله تعالى وهى تعمل مع قلب غافل تراكمت عليه الذنوب فأغفلت منافذ الضوء فيه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن كيفية وصول رسالة القرآن الكريم إلى القلوب: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1] فهو سبحانه يشترط للإستجابة قلبا طبيعيا لم تعتمه الذنوب يلقى صاحبه السمع ويعيش المعنى بكل كيانه، هذا إذا كانت (أو) بمعنى أما إذا لم تقتضى الجمع واقتضت المغايرة، فيكون القلب المشرق للمؤمن. وعلى غير المؤمن أن يعيش معانى القرآن الكريم حتى يهتدى به، ورقة الأفئدة مستجلية للإيمان دائماً.

وغلظة القلوب منافية له، والران هو الذى يفسرلنا معنى غلظ القلب ورقته، ورسول الله ﷺ يربط بين الإيمان ورقة القلب –أى الصفاء من الكد، والنقاء من الران، فيقول: "جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة الإيمان يمان والفقة يمان، والحكمة يمانية"[2].

وتأتى رقة الأفئدة من ضعف الران، ويضعف الران بسبب اليقظة، وقوة الاستجابة، ويقوى بدونهما.

العلم والاستجابة:

يتكئ كثير من الناس خُداع الران، ويظن أن علمه فى أى فرع من فروع المعرفة يجعله لا يخضع لقاعدة الران ودورانها، والغفلة الناتجة عنها، ولكن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن كثيرا من الناس أضلهم الشيطان رغم عملهم الكثير وتفوقهم فى كثير من المجالات،

(١) سورة ق: ٣٧.

(٢) صحيح مسلم جـ١ حديث رقم ٥٢.

فيقول الحق تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

فى الآية الكريمة تنبيه على كثرة علم عاد وثمود، أن هذا العلم يظهر لكم من مساكنهم وفخامتها. ومع ذلك أغراهم الشيطان على علمهم هذا. وانحرف بهم إلى التيه والضلال. فالعلم مع الغفلة لا ينفع بشئ.

التعريف:

جاء هذا التعريف متأخرا بعض الشئ لضرورة تتعلق بجوهر هذا المقال لأن الغفلة تدرس هنا ليس من الناحية اللغوية، إنما تدرس من ناحية التأثير على جوهرية الإيمان فى القلب، ولذلك كانت البداية برصد القرآن الكريم للغفلة. ثم دراسة الغفلة كمرض عضوى، ثم يأتى بعد ذلك التعريف اللغوى ليحدد المعانى المتناثرة ويجمعها كغطاء لجوهرية البحث.

والغفلة فى أصلها اللغوى. ترك الشئ سهوا وربما كان عمدا[2].

الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

وهذان التعريفان يرصدان كثيرا من المعانى الهامة التى أشرت إلى أنها ستكون عطاء للبحث، وتتمة لمعاينة.

ففى التعريف الأول: ترى أن الغفلة ترك الشئ سهوا وربما عن عمد.وهذا التعريف يأتى بفائدة أن الغفلة لا تتعلق بالسهر فقط بالنسبة للمتروك ولكنها تتعلق أيضا بالمتروك العمد، ومعنى هذا أن النفس تسقط بعض الأشياء سهوا، وبعضها عمدا لداع من الدواعى التى تتراجع لديها.

(١) سورة العنكبوت: ٣٨.

(٢) ابن فارس معجم مقاييس اللغة جـ٤ ص ٣

وفى التعريف الثانى: الغفلة: الغفلة سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ[1].

هذا التعريف يقع مباشرة على ماهية الذاتية الغافلة، لأنها حين تتسربل بالغفلة تفقد خاصيتى التحفظ والتيقظ، والتحفظ هو الحرص على كل ما ينفع الإنسان والتيقظ هو الاستجابة ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وحين تفقد الذاتية الغافلة التحفظ تصاب بالعزلة الفاصلة، التى تفصل بينهما وبين الواقع المعاشى جسديا وروحيا واجتماعيا، ويتوقع الإنسان ويعيش داخل ذاته، وتراه إلى الخارج ويسمع منه، ولكنه لا يتأثر بفاعلياته وآلياته.

(ب) فاعلية الغفلة على الذات:

توهم لفظة الغفلة لأول وهلة أنها اتجاه سلبى، وسلوك عاجز عن الفعل، وهذا النوع من الغفلة ليس أساسا فى هذا البحث، إنما الغفلة التى يتجه إليها البحث، وهى الغفلة، التى يغفل فيها الإنسان بشئ عن شئ آخر، وفاعلية الغفلة تعنى السلوك الجديد للذاتية الغافلة، أو السلوك المستبدل ولذلك فهناك مجالات عديدة اجتهد فى السير فيها المدعون، وهى ليست وسيلتهم الناجعة، ولا تؤدى إلى هدفهم المنشود.

وحين تبلغ الغفلة بالإنسان مداها، وتجعله ينفصل عن طريقه، ويضل هدفه، "يشعر بحدوث تغيير فى ناحية، أو فى بضع نواح معينة، من نواحى شخصيتة. كما قد يكون شعورا شاملا يشعر معه صاحبه بحدوث تغيير شامل، متضمنا لجميع نواحى حياته[2]

الأهداف:

قبل الخوض فى فاعلية الغفلة على الذاتية الغافلة تحدد الأهداف التى يذهل عنها الإنسان، وذهوله عنها يفقده التوازن فى حياته. فهى أهداف مختلفة عما ألفه البشر من

(١) الراغب الأصفهانى المفردات ص ٣٦٢ طالحلبى.

(٢) د. عزيز فريد الأمراض النفسية العصبية ص٣٨٥ ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٤م.

أهداف، فالأهداف البشرية حيت يترك بعضها الإنسان لا يصاب بشئ كثير من الانعكاس الهدفى والتخلخل الوسيلى.

أما الأهداف التى حددها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش إذا تركها، لأنه فى الوصول إليها سعادة الإنسان أساسا فهو يحصل على الجائزة مرتين، مرة سلك الطريق، ومرة لأنه قد وصل إلى نهايته.

الهدف الأول:

الهدف الأول من وجود الإنسان فى الأرض هو عبادة الله سبحانه وتعالى بمعنى طاعته، والله تعالى لا يحتاج إلى عبادة أو طاعة الإنسان فى شئ. إنما ذلك لمصلحة الإنسانننفسه فكما قلنا من قبل فإن الوسيلة تشرف بشرف الهدف.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

الهدف الثانى:

وهو ضميم الهدف الأول: إعمار الأرض، وخلافة الله تعالى فيها، أى على الإنسان فى هذا الهدف تحقيق مشروع الحق سبحانه وتعالى فى الأرض وإثبات استحقاقه للخلافة وليس العكس كما رأى الملائكة فى البداية. ومشروع الله تعالى إذا أخذنا ملامحه من القرآن الكريم فإنه يتكون من إعمار الأرض - نشر العدل فى ربوعها - إتاحة الفرصة الحرة لجميع البشر للدخول فى دين الله تعالى الذى تقره العقول، وتشتاق إليه الفطر.

وعن الهدف الثانى يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2].

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

هذا الهدف: إعمار الأرض وخلافة الله تعالى فيها يختلف عن الهدف الأول فى أنه يحتاج إلى أمة قوية لها بأس شديد، لأن إقامة العدل ودحر الظلم ونشر دين الله تعالى وإفساح الطريق لدعوة الإسلام كل ذلك لا يتم بالقيام والصيام والنوايا الطيبة والدعوات الصالحة، وإن كانت الحياة لا تمضى آمنة ومستقيمة بغير هذه الشعائر:

إنما كل ذلك بالبناء والإعمار والإعداد والبحث عن أسباب القوة فى جنبات الحياة. فهدف العبادة يتحقق بتحقق بالعبادة، وهدف الخلافة لا يتحقق إلا بالسيطرة على أسباب القوة ومعرفة أسرار الحياة.

ومن العجيبفى هذا الزمن أن الذين كلفهم الله تعالى بالخلافة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2] والإعمار تقاعسوا، فى الوقت الذى يحاول فيه أعداء الله تعالى خلافته فى أرضه، بالعمل المتواصل واستكناء أسرار الحياة.

الغفلة والعبادة: تدخل فاعلية الغفلة إلى الهدف الأول من طرق كثيرة، منها صرف الإنسان عن روح العبادة إلى رسمها فروح الصلاة تنهى العبد عن الفحشاء والمنكر، وإقامة ذكر الله تعالى فى قلبه، ذكر - وتذكر، وتبعده عن الغفلة - التعلق بشئ آخر - التى تجعله منصرفا عن روحها، وحينما تعلق المسلمون برسوم[3] الصلاة دون روحها، ساءت حالهم ولم يستفيدوا من فاعلية الصلاة فى المجتمع الإسلامى، وهم بذلك لم يخسروا قبول العبادة فحسب، بل خسروا فائدتها التى من أجلها شرعت وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

(٣) لا تغفل حق الرسم فى الصلاة –أقوال وأفعال – لأنه = اطارها الذى تتلبسه الروح، فلا يكن الإنسان أن يحصل على روح الصلاة من غير الإحتفاء بإطارها الجميل

فالتاجر يصلى خادما أركان صلاته ولكنه يغش فى سلعته. والسياسى يصلى، بل يبالغ فى صلاته، ولكنه يغش فى أمته، وهكذا: لأن الغفلة ربطت التاجر والسياسى - على سبيل المثال فقط - بالعرض وصرفتهم عن الجوهر، وهذه هى فاعلية الغفلة فى الهدف الأول - العبادة.

الغفلة والخلافة:

كما يذهل العبد عن خوف مقام الرب وتوقيره كذلك يذهل عن دوره فى الحياة، وكثرة المسلمين لا تعرف لها دورا فى الحياة، وربما أجاب أحدهم عن هذا الدور بأنه عبادة الله تعالى، وإذا سألته: هل تنفصل العبادة عن الخلافة؟ أجابك بأنه لا يعرف شيئا عن ذلك، وأنك تنادى من نكان بعيد، فالخلافة هى وعاء العبادة، وعندما يعمر الإنسان الأرض، وينشر فيها العدل والخير، على وفق شريعة لله سبحانه وتعالى فإنه يكون قد هيأ أرضا ومناخا صالحا لعبادة الله سبحانه

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى شعيرة الأذان التى أرتضاها للمسلمين هى: الله أكبر، فهو أكبر، بذاته وجبروته وقهره، هذه حقيقة أساسية، وعلى المسلمين جعل هذه الحقيقة الكبرى واقعا بين الناس، بخشعوهم فى العبادة، وسلوكهم فى الخلافة، إننا يجب أن نجاهد ونبذل العرق والجهد والدم - عند الحاجة - لتكون - الله أكبر - واقعا بين الناس، وهذا هو معنى الخلافة.

وإذا عدنا إلى الذاتية الغافلة رأينا أن أجهزة المسلمين لا تهتم بهذه المعانى، وليس ذلك كفرا وعنادا، إنما ذلك غفلة، فصلت بين القلب ومتابعه، بين العقل وواقعه. فالذاتية الغافلة تخلد فى العبادة إلى الشفاعة والمغفرة، ولا تفعل شيئا تستحق به الشفاعة وتنال به المغفرة، وتركن فى الخلافة الحياة الحيوانية فقط أى الحياة (البيولوجية) ولا تعرف لنفسها هدفا ولا رسالة.

إن واجب الخلافة يقتضى أن تكون الأمة الإسلامية هى أرقى الأمم وأعلاها شأنا، لكى تقود الناس إلى مرضاة رب العالمين، وعلى كل فرد من هذه الأمة أن يعمل لهذا لاهدف العظيم يتصل بواجب من قريب أو بعيد.

لقد جاء اليهود إلى فلسطين وهدفهم المعلق إقامة مملكة الرب وإنشاء وطن قومى - غالب - لليهود.

ودارت عجلة الحياة، وعمل الجميع من أجل هذا الهدف الروحى الدنيوى وانتصروا وانتشروا - وهم على باطل - وأصبحوا يهددون أصحاب الحق الأصيل - الوحيد ونحن ننظر إليهم تتخمنا الحسرة، ويغشانا التساؤل: متى جاءوا؟

كيف استطاعوا تحلية ماء البحر وإخراج المياه من جوف الأرض وزرع الصحراء؟

وأى فرق يسننا وبينهم فى الخلق والتكوين؟ لاشئ إلا أن لهم هدفا يسعون إليه ونحن نعيش من غير هدف يوقظنا للحركة من سباتنا العميق، إن الغفلة طغت على أروحنا فعزلتها عن روحانية العبادة طغت على أرواحنا فعزلتها عن روحانية العبادة عن روحانية العبادة، وطغت على عقولنا فعزلتها عن فاعلية الخلافة، فالذاتية الغافلة ذاتية مغمورة بوهم استحقاق النعيم فى الآخرة من غير عمل يجلب هذا النعيم، ومطمورة بوهم التفوق والسيادة من غير كد وجهد وعرق - سيادة العاجزين.

ومن الجائز اطلاق لفظ الذاتية الغافلة على أفراد الأمة فردا فردا، ومن الجائز أيضا إطلالة على الأمة مجتمعة فى انيتها - قصعة الأكلة - فكل فرد لا يعمل لترقية الأمة، مجتمعون لا يعلمون لهذا الهدف العظيم.

سيكولوجية الذاتية الغافلة:

الذاتية الفاعلة مدعوة وداعية، والذاتية المنفعلة مدعوة وداعية، ولكن الذاتية الغافلة مدعوة فقط، فهى تحتاج إلى دعوة، إلى إفاقة، فالذاتية الغافلة لم تنته بعد ولكنها لم تبدأ أيضا، وعلى الدعاة دراسة هذه الذاتية بعناية فائقة، وهمة دافقة، فهى الأرض التى يجب أن نزرع فيها، ليكون لزرعنا ثمار مثمرة، وقوة فاعلة.

والذاتية الغافلة تختلف عن الفاعلة لعدم وجود المحرك الذاتى وتختلف عن المنفعلة لغياب المستقبل الذاتى، الذى يجعلها تنفعل بما يلقى إليها من كتاب الله سبحانه تعالى ومن سنة رسول الله ﷺ فهى ذات بين بين، وليس معنى ذلك أنها ذات منافقة، فالذات المنافقة اختارت طريقها ولها خاصتها وخواصها. (إنما البين البين هى منطقة الدعوة فى الذات الغافلة).

وعلى الدعاة أن يخرجوها من هذه المنطقة إلى المنطقة التى تكون فيها فاعلة منفعلة، بشرط أن يخرجوا قبلها فهل يستطيعون؟

جـ - حصاد الغفلة: (آثارها)

وحصاد الغفلة يشمل من الناحية العملية الناحيتين –العبادة والخلافة فهو فى العبادة يخرجها عن مضمونها ويحولها إلى رسوم هلامية، وفى الخلافة يفسد خططها، ويعكس هدفها، ويجعلها شيئا أقرب إلى الظن أبعد عن اليقين.

الغفلة والعبادة: إذا أخذنا أركان الإسلام الخمس كمثال لفاعلية الغفلة وإفسادها للعبادة فسوف نكتشف ما يلى:

١ - **الشهادة:** - من معانى الشهادة العظيمة يشقيها أن الإنسان إذا نطق بالتوحيد فى الشهادة الأولى "فانه لا يقدس الله تعالى فحسب، بل يتفاعل سلوك الإنسان مع معانى التوحيد الكبيرة التى تخلص الإنسان من الخوف من غير الله تعالى، وتدفعه إلى اليقين بتوفيق الله تعالى له فى كل عمل يتجه إليه" وتخلص الإنسان من الشعور بالأغياروفاعليتها فى الحياة، وتحرر سلوكه من جاذبية السوى، وتجعله ينطلق فى الحياة بشعور عن سحر له ما فى السموات والأرض، ويصبح إنسانا كبيرا يعبد ربا عظيما لالا إله غيره، ولا نصير سواه.

وإذا نطق بالشهادة الثانية فإنه يمتلئ بالمعانى التى تدور حول شخصية خاتم المرسلين، بنهاية توجيه الحق سبحانه وتعالى للإنسان، ويتمثل فى مخيلته هذا النموذج

الإنسانى الفذ فى طاعة الله سبحانه وتعالى عبادة. وفى بناء الحياة وتطويرها خلافة، فتصبح شخصية الرسول ﷺ بارزة فى نفس الإنسان مشرقة فى سلوكه، موجهة له فى عمله مهيئة له فى أمله، نبراسا له فى طريقه مثلا أعلى فى كيانه، قوة فى بنيانه، أقرب إليه من بنائه.

هذه بعض المعانى الحية التى تواكب النطق بالشهادتين عند المسلم اليقظ، فإذا ما طبقنا عليها قاعدة الغفلة، فإننا نلاحظ أن كثيراً من المسلمين ينطقون بالشهادتين، وكل منهم لا يعى ما يقول، فتجد الرجل إذا أقبل على رجل آخر له سلطان فى عمله أو ماله، فإنه يردد كلمة التوحيد كثيراً ومع ترتعد فرائصه يقول بلسانه لا إله إلا الله "هذا من الناحية اللفظية النظرية" ولكنه بقلبه ويخشى هذا المخلوق أكثر من خشيته لله سبحانه وتعالى، ونجد إنسانا آخر لا يعتمد فى عمله وسلوكه على الله لكى يريح نفسه من ذلة نفاق البشر، ولكنه يعتمد على الإنسان، بمعنى أنه يبذل جهودا كبيرة لتحسين علاقته بالناس ولا يبذل مثل هذا الجهد لتوطيد علاقته بالله سبحانه وتعالى، ومع ذلك لا يفتأ يردد كلمة التوحيد لا إله إلا الله. لا إله إلا الله.

فإذا ما جئنا للشهادة الثانية: محمد رسول الله - وجدنا أن جمهرة المسلمين يصلون على النبى ﷺ عند سماع اسمه. ويشهدون أنه رسول الله ﷺ ولكن كثيراً منهم لا يزيد على هذا الترديد اللفظى شيئا ذا بال، من غير تمثل لقدوة، أو انتفاع بأسوة حسنة، إنها لغة الغافلين ويستوى التاجر والزارع وعالم الدين فى بعض الأحيان وعند البعض فى كل حين. إنها الغفلة التى طمست معالم شخصية النبى ﷺ العظيمة التى لو تمثلنا تمثلا حقيقيا لظللنا أمة السيادة الرائدة والقيادة النافعة.

ولكن أين نحن الأن من رسول الله ﷺ وصحبه الكرام والأعلام.

٢ - **الصلاة**: من معانى الصلاة الفاعلة، فاعلية الضبط السلوكى للمسلمين، فهى تمنع فى مجتمع المسلمين، وتجعل شيئا شاذا نادرا، وهى أيضا ذكر لله تعالى، بمعنى التذكر لله تعالى بكل ما يحمل هذا الذكر من هيبة ووجل فى قلب العبد المؤمن اليقظ. وهى

تذيب الفوارق النفسية فى المجتمع حين ينتظم المسلمون صفا واحدا فى الصلاة، إلا أن الغفلة تجعل من الصلاة رسوما مشاكلة وأذكارا ذابلة، وفاعلية خاملة، بل أصبح من الأمور المتداولة على ألسنة الناس، أن يتذكر الإنسان المسلم ما كان قد نسيه إذا قام إلى الصلاة، وكأن المسلمين ينشغلون بكل شئ فى الصلاة إلا الصلاة نفسها، ومن هنا تفقد الغفلة من الصلاة فاعليتها الدنيوية والأخروية على السواء.

٣ - **الزكاة**: والزكاة شرعت لمعان كثيرة منها –إعادة توزيع الثروة فى المجتمع المسلم - كى لا تكون دولة بين الأغنياء –ويقصد منها التنمية وليس مجرد الصدقة، وهى شعور بالامتنان من المؤدى لله تعالى، وشعور بالرضا من المؤدى إليه، على إخوانه ومجتمعه، وعلى هذا ففاعلية الزكاة تنشيط للمال فى المجتمع، لكى يخدم أكبر عدد ممكن من الناس، ثم إقامة نوع من الترابط والتداخل بين قلوب المسلمين فلا حقدو ولا حسد بين فقير وغنى، إنما الجميع يبتغى فضل الله تعالى فى العطاء وفى القبول على السواء، والزكاة على وجهها الصحيح اليقظ لا تترك فقيرا فى مجتمع المسلمين، وقد حدث ذلك كثيرا فى التاريخ الإسلامى المجيد. إلا أن المسلمين عن طريق الغفلة حولوا الزكاة الغافلة إلى صدقات لا لون ولا رائحة، فهى أثواب توزع بغرض المفاخرة، وطعام يؤكل للمتاجرة، وماشية تذبح عند المقابر للمحاجرة، وأحيانا يستدرج بها بعض المحرومين للمفاخرة. وبهذا ضاعت فاعلية الزكاة فى مجتمع أحوج المجتمعات الإنسانية إلى فاعلية هذه الزكاة.

٤ - **الصوم**: والصوم فيه الكثير من المعانى المعروفة للكافة، لكن من معانيه الفاعلة إعادة صياغة إدارة الفرد المسلم، فالصائم المنفعل بالصوم، لا تسقط إرادته أمام أى قوة فى الوجود، إلا قوة صانع الوجود، ولا يتخاذل أمام أى شئ من مغريات وشهوات الحياة. لكن الغفلة جعلت منه شيئا أقرب إلى تنظيم الغذاء منه إلى تبسيط العزيمة وتفعيل الروح أى جعلها فاعلة منفعلة، فكم من صائم لا يعيش صومه، ولا يوقظ يومه، ولا يقلل نومه، وقد تطوع علماء الدين فشرحوا للناس أن الصوم يجعل الغنى يشعر بمعاناة الفقير - وسأل

البعض ولم يصوم الفقير؟، وقال علماء الطب إنه يقوى الجسد، ويطهره من الشوائب، ولا يعلم الجميع أن الصوم يصيغ الفرد ويعيد هيكله الأمة، ودفعها للأمام ولكنها الغفلة:

٥ - **الحج**: والحج هو السداد فى نسيج المسلمين، بمعنى أنه يجدد كل عام الإحساس العام المشترك بين المسلمين وينقل كلمة "أمة واحدة" من محتواها اللفظى إلى جوهرها العلمى، فإذا ما اشتكى مسلم فى أقصى الشرق من العالم، تألم لشكواه مسلموا العالم جميعا، ولكن الغفلة جعلت من الحج سياحة للبعض ونياحة الآخرين، إنها جموع محتشدة وقلوب شتى، ودعاء ونداء كيف تجتمع أمة على هذا المستوى الجمعى، ثم لا يهابها عدوا؟

الغفلة والخلافة:

كما ضيعت الغفلة فاعلية العبادة من المسلمين، ضيعت عليهم أيضا فاعلية الخلافة، وإذا بقى من العبادة الرسوم عند كثير من المسلمين، فلم يبقى من الخلافة شيئا ذا بال، بل أصبحت الأمة الإسلامية مستهدفة فى دينها وأرضها وعرضها وحاضرها ومستقبلها، وليس هذا شيئا قدريا كما يعتقد بعض الغافلين، وبعض الذين يلقون تبعة فشلهم وتكلسلهم على الأقدار، بل هى مهمة تركناها، وأمانة فرطنا فيها، وقمة ضيعناها، واستبدلنا الخلود فى النعيم عند رب العالمين، بالخلودإلى الأرض. وإتباع الهوى والسعى خلف الأوهام –خلف كل عدو لئيم، وأمة كهذه يجب ألا تكرم بل يجب أن نحاكم على تفريطها الشائن فيما لديها، خصوصا الأمة التى قال لها ربها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾«هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا»[1].

والإسلام طلب من أتباعه تجويد علوم الدنيا لأمور ثلاثة:

أولها: أن تعمير الأرض جزء منرسالة الإنسان على ظهرها، جزء من العبادة التى خلق من أجلها. جزء من الكدح الذى يصون نفسه وأهله وشرفه.

(١) سورة البقرة: ٢٩

الثانى: أن الله تعالى لم يخلق الإنسان ويجوع ويعرى، بل خلقه مكرما يحمله ما فى البروالبحر، وأحل له الطيبات، ويسر له الزينة والجمال بما فوقه من نجوم وبما بين يديه من زرع وضرع.

الأمر الثالث: فإن الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا ينجح بعيدا عن التفوق المدنى والحضارى.

والأمة الإسلامية كى تكون على مستوى دينها، وكى تنجح فى المحافظة عليه، وكى تستطيع إفهامه للآخرين، لابد أن تكون راسخة القدمين فى شئون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سباقة فى شتى الميادين "مسموعة الكلمة فى آفاق العلم - العلم - برا وبحرا وجوا... ومن حق الأمم الكبرى - وهى أمم تحتقر الأمية العلمية والصناعية - أن تنظر إلى دعاوى المسلمين وأفكارهم وقيمهم بريبة أو بسخرية ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الإنسانى"[1].

ويستمر الشيخ محمد الغزالى بعد أن قدم الأمة الإسلاميةللمحاكمة على تفريطها فى الخلافة، وقدم حيثيات هذا الحكم.

يستمر فى عرض أسباب هذا التخلف الحضارى فيقول: (وفى ظنى أن لهذه العلة سببين:

أحدهما ثانوى: وهو تغلب طبائع البدو على تعاليم الإسلام. فإن البدو يكرهون الحرف، ويزدرون الصناع، وينظرون إلى الفلاحين نظرة نابية.... وكانوا قديما السيوف من الهند وما جاورها، ليستعينوا بها على الغزو السطو ولا يكلفون أنفسهم صناعتها،... ولا ريب أن لهذه البداوة الغبية أثرا ملحوظا فى دنيا العرب إلى اليوم.

أما السبب المهم فى التخلف الحضارى: فهو شيوع التدين المزيف، ووقوع الثقافة الدينية إجمالا بين طوائف من ذوى المعادن الرخيصة أو العقول المعتدلة ويغلب على

(١) الشيخ محمد الغزالى –سر تأخر العرب والمسلمين ص ١١٣ ط دار الريان للتراث ١٩٧٨.

هـؤلاء التأثر بالزهد الهندى، أو النصرانى، والرغبة عن الدنيا، وعصيان نداء الفطرة، والغرام بالمبتدعات، واتهام النزاعات العقلية)[1].

هذا الفهم الأصيل لرسالة الإنسان، الذى استعرضناه فى السطور السابقة للشيخ محمد الغزالى هو ما يحتاج إليه الفكر الإسلامى فى حالته الراهنة.

لقد ظن الزاهدون أنهم يزهدهم هذا قد ضيعوا الدنيا على أنفسهم وذويهم، إلا أنهم فى الحقيقة قد ضيعوها على أمتهم أيضا، وإذا كان ترك العمل قديما مستساغا، حيث كانت تمطر السماء على الأرض فيخضر العشب فترعى الغنم والقوم يجلسون على ربوة لقرض الشعرونظم القوافى، فإنه لا يستساغ الأن فى وسط هذا الصراع الرهيب بين الأمم، على استشراف الممنازل العالية، وإذلال الأمم المتكاسلة الخاملة الغافلة، لقد أصبحت ذاتية المسلمين فى غفلة عما يرادها، أو يراد بها.

الحصاد:

ونتيجة لغفلتنا عن دورنا الحضارى، وخلافتنا لله تعالى فى الأرض، فشلنا فى الصراع الحضارى، وفى السيطرة على مقدرتنا، وأصبحنا فى موقع المشاهد لعدونا وهو يدير شئوننا، ويحدد مصيرنا وأضعاله إطار الفناء النهائى، تشاهد كل ذلك ونحن بفعل الغفلة لا تحيا إلا يومنا، ولا نرى إلا تحت أقدامنا.

إن من ينظر إلى خريطة العالم الإسلامى فى الوقت الحاضر، يراها تنتقص وتنتقصمن كل جانب ومع ذلك فلكل شعب مسلم هموم تشغله، وهى هموم لا قيمة لها فى معظم الأحيان، بل لكلفئة من فئات هذا الشعب ما يشغلها، وإذا دلفت إنى داخل بعض الهيئات الدينية ترى الصراع المرير من أجل المنصب أو المال، أما قضايا الأمة الإسلامية فسلام عليها إلى يوم البعث العظيم.

(١) المصدر السابق ص ١١٤.

(دخلت القوات البوسنية المسلمة فى قتال مستميت ضد القوات المصربية التى تحاصر العصمة سراييفوا، وسط تحذيرات من احتمال تحول المدينة إلى أكبر مقبرة فى التاريخ فقد شنت قوات المشاة الصربية هجوما واسع النطاق تحت غطاء من القصف المدفعى المكثف، على منطقة جبل إيجمان ليلة أمس الأول للإسقاط أقوى معقل للقوات المسلمة.. وبغرب سراييفوا تمهيدا لهجوم شامل على المدينة لدخولها فى غضون ساعات تنفيذا للإنذار النهائى الذى وجهه زعيم صرب البوسنة رادوغان كراديتش لحكومة البوسنة للإذعان لخطة التقسيم، أو إلحاق هزيمة منكرة، وهى ما يعنى تحقيق حلم الصرب بدخول المدينة.

وتعد مشكلة نقص الأسحلة والذخائر فى أيدى القوات المسلحة السبب الرئيسى وراء تراجعها أمام القوات المهاجمة، مما يهدد بتحويل سرايفو إلى أكبر مقبرة فى التاريخ... وفى الوقت نفسه أعلنت الأمم المتحدة عن استمرار المليشيات الكرواتية فى عمليات التطهير العرقى ضد المسلمين بمدينة "موستار" جنوب غرب البوسنة، ووصفت الأوضاع المستمرة هناك منذ شهرين بأنها أشبه بمذابح يومية لمسلمين على غرار مذابح اليهود فى عصر النازى)[1].

هذه دولة إسلامية تباد، فهل يعيش المسلمون فى يقظة لما حدث؟! فى نفس الأسبوع الذى نشر فيه هذا التحقيق عن البوسنة والهرسك كان الجمهور فى مصر مشغولا بمشكلة خطيرة ألا وهى تعاقد أحد اللاعبين فى أحد الأندية مع ناد آخر، وأصبح هذا الخبر مسيطرا على حياة الناس فى أعمالهم وفى وسائل المواصلات، وإذا استعرضنا المشاكل التى تشغل بال باقى الشعوب الإسلامية وجدناها تماثل هذه المشكلة التى شغلت الشعب المصرى، وأنسته أرضه وعرضه فى البوسنة والهرسك.

(١) جريدة الأهرام العدد ٢٨٩٤٢ بتاريخ ٢٠/ ٧/ ١٩٩٣ ص١.

وإذا انتقلنا إلى فلسطين فاليهود يقومون بإبادة شعب، ومحو هويته، ومثل ذلك فى الفلبين، وفى الهند، وفى بورما، وغدا فى باقى دول البلقان، ولا ننسى ما حدث فى الأندلس، وما يحدث الأن بالصومال كل هذا والمظاهرات تقوم فى الجزائر ضد الإسلام (لأول مرة فى تاريخ الأمة العربية والإسلامية تنظم فى الجزائر مسيرات ترفع شعار لا للإسلام ولا للعربية[1].

إن كثرة الهزائم التى يتعرض لها المسلمون الآن والتى سيتعرضون لها فى المستقبل القريب تحتاج إلى يقظة وإلى إيقاظ من هذه الغفلة لأننى أخشى أن تستيقظ يوما فلا نجدشيئا نستيقظ من أجله. لقد سقط الاتحادالسوفيتى عدو الغرب التقليدى، ووصفت الاستراتيجيات فى الغرب على القضاء على الأمة الإسلامية وهى عدو –ان لم تستيقظ من ثباتها - طبع القياده شبه منزوع السلاح والعدو يخطط ويتربص، ونحن فى غفلة أدمنها وتعودناها والحرب القادمة "حرب الحضارات" كما يسميها أكبر أساتذة العلوم السياسية فى الولايات المتحدة، ومفهومها هو أن للصراع الأبدى بين البشر هو صراع الحضارات[2].

ومن هنا يأتى الصراع القادم بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، والمؤلف هو: "صمويل هنتيجتون"

ليست كل هذه المحن التى تتعرض لها الأمة الإسلامية هى التى تثير الدهشة لأنها أمور متوقعة من العدو الذى يعلم أنه لا بقاء له مع أمه رائدة تحكم شريعة الله تعالى فى الحياة، أمة لو يفيق أبناؤنا من ثباتهم ويخرجون من كهوفهم لسادوا العالم أجمع فى عشرات السنين، إنما الذى يثير الدهشة والحزن معا، هو اننا كمسلمين نعيش الحياة

(١) مجلة المختار الاسلامى العدد ١٢٦ يونيو ١٩٩٣ ص ٦١.

(٢) مجلة أكتوبر العدد ٨٧٥بتاريخ ١٩٩٣/٨/١ ص ١٨.

ببساطة وسلاسة: وقد تحكمت فينا الذاتية الغافلة حتى أصبحنا لا نسمع وقع أقدام العدو. ولا نرى طلائع قواته القادمة إلينا.. إننا نتاجر ونكسب ونزرع ونحصد، ونقيم الأفراح بالأسابيع والشهور، ومع ذلك فنحن مقبللون بأسرع مما نتصور –إن بقينا على حالنا هذه من الغفلة - على هوة عميقة يلمها الفناء.

الباب الرابع

الذاتية المتضخمة

الفصل الأول

مكونات النفس البشرية وعناصرها الأولى

في هذا الفصل نحاول الإجابة على سؤال محدد للغاية وهو: كيف ولماذا تتضخم الذات الانسانية؟

وللإجابة على الكيف: نعود إلى مكونات النفس البشرية وعناصرها الأولى ونعرضها كما يلى:

أولا فى القرآن الكريم

يوضح القرآن الكريم أن الذات الإنسانية ليست وحدة واحدة تقوم على ركيزة واحدة بل هى وحة واحدة تقوم على ركائز عديدة منها:

(أ) الروح:

وهى ترى ولا تحدد ومع لا تقوم الحياة بدونها. وهى نموذج للربط الشديد بين عالمى الغيب والشهادة، وقد كلت العقول البشرية وأصابها الإعياء من محاولة استكناه سر الروح فى الذات الإنسانية، ومع كل ذلك فلا حياة للإنسان ولكل الكائنات الحية بدونها. وإذا كنا لا نستطيع الحديث عن ذاتية الروح فإنه من اليسير تشبيه علاقتهما بالجسد بعلاقة الكهرباء بالأجهزة الهكربائية، فالكهرباء تعطى الحياة للجهاز الكهربى وهى قادمة إليه من خارجه. فإذا ما انسحبت منه تحول إلى جثة هامدة وهكذا الإنسان مع روحه قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]

(١) سورة الأسراء: آية ٨٥.

فنحن لا نستطيع بعد هذا النص الحديث عن ذاتية الروح وماهية الروح ويبقى المجال متسعا لهويتها

(ب) النفس:

وهى قوة الإختيار فى الإنسان وهى مؤهلة لسلوك كل دروب الحياة وملهمة بذلك. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1] أى ما تتقى وتفجر به وهو الاستعداد (أى الفطرة) لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾[2] وهى تختلف عن الروح، لأن القرآن الكريم والنبى المبين قد بسطا لنا كثيرا من صفات هذه النفس، حتى أصبحت واضحة المعالم ممهدة الصفات.

(جـ) العقل:

وهو الفهم وهو ميزان كل الأشياء الداخلية والخارجية للإنسان إلا أنه تتنازعه عدة قوى داخل الذات الإنسانية. ويتحدد موقفه ومكانه على هذا الأساس، فإن انقاد الشهوات الإنسانية وخطط لها كان عقلا شهوانيا وإن غلبته الروح كان عقلا روحانيا.. وهكذا

ثانيا: فى علم النفس

وهناك تقسيم آخر عند علماء النفس المحديثين للذاتية الإنسانية، وهذا التقسيم - وإن كان من أبرز التقسيمات - ليس هو التقسيم الوحيد، فهناك تقسيمات عديدة ولكنه أشهرها وأكثرها انتشارا وهو كما يلى:

يقول فرويد إن النفس تنقسم ثلاث طبقات:

١ - عندما يولد الطفل قطعة لحم مزودة بأنواع مختلفة من الدوافع الفطرية يطلق عليها ال (هى – هو)

(١) سورة الشمس آية: ٧.

(٢) سورة الروم آية: ٣٠

٢ - ترى الطفل عندما ينمو ينادى دائما (آنا) أنا الذى يأكل. أناالذى يشرب أنا الذى يقضى حاجته. وهكذا يتكون عند الطفل (الأنا) ووظيفته ′ما تحقيق رغبات ال (هو) أو كبح جماحه إن كان هناك على (الأنا) من المجتمع الذى يعيش فيه.

٣ - عندما يمتص الطفل من والدية من والديه أنواع السلوك المختلفة من أوامر ونواهى تتشكل الطبقة النفسية الثالثة وهى (الأنا الأعلى) وهى السلطة الداخلية التى تحكم وتفند وتنتج عن تعليمات الأبوين وآداب الجماعة والدين.

والشخصية السليمة يقوم (الأنا) فيها بتحقيق التوازن بين (الهو) وبين (الأنا الأعلى) إذ كثيرا ما يحدثصدام بين الرغبتين، فإذا احتل التوازن، ولم يستطع (الأنا) التحكم فى هذا التوازن، فإن الشخصية تختل، وقوة (الأنا) ترجع إلى حسن التربية بعد الدليل أو التعخويف، وتكون الثقة بالنفس لدى الطفل. وهكذا نرى أن العقد النفسية تنشأ عندما لا يتمكن الفرد من تحقيق جميع رغباته فى المجتمع فتضطر (الأنا) إلى كبتها، ومحاولة نسيانها فإذا ما حدث أن تذكرها الفرد يصاب بالإضطراب الداخلى أو الخارجى وهكذا يقع الفرد فى صراع نفسى يؤدى إلى ظهور الأمراض النفسية والعقد المختلفة[1].

فى الفقرات السابقة قدمنا رؤية علم النفس لمكوناته الشخصية الإنسانية ونحن لا نقرها ولا نرفضها؟ وما يهمنا فيها هو التقسيم: تقسيم النفس أو الذات الإنسانية ومحاولة الوصول لسير أغوارها واستكناه اسرارها.

الشخصية الإنسانية (الذات من الخارج):

من المسلم به أن حقيقة النفس البشرية والشخصية الإنسانية لا تؤخذ من علم النفس ولا يمكن أن تؤخذ كحقيقة ثابته إلا من كتاب النفس المفتوح، القرآن الكريم

(١) مراد بطرس صالح: على النفس العامص ٤٥، ٤٧٦ط المكتبة النموذجية ١٩٦٧.

ولكن علم النفس يعالج الجوانب الممكن قياسها من النفس البشرية (إن كثيرا من المعلومات المستفيضة فى علم النفس قد جمعت باتباع ضروب البحث التجريبى، وتبدو هذه الطريقة أنها تقدم أفضل الوسائل لتحقيق اكتشافاتنا، إلا أن الثمن الذى ندفعه هو تحديد تطلعاتنا، فتنكمش إلى جزء فقط من الكائن البشرى، ولذلك تعمل على إخماد الإهتمام بالإطار الكلى)[1].

ولذلك فعلم النفس لا يقدم لنا إلا القشور عن الشخصية الإنسانية، وهذه النتيجة تصل بالبحث إلى التركيز على المعلومات المتوافرة عن النفس الإنسانية فى القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيتضح ذلك فيما بعد.

بناء الشخصية:

يركز علم النفس فى نظرته للشخصية الإنسانية على عاملين هامين:

الأول: مجموعة المواريث التى تنتقل من الآباء عن طريق الجينات الوراثية

الثانى: مجموعة القيم والتفاعلات المنقولة من البيئة الخارجية إلى الإنسان (ينشاء كل إنسان خلال تفاعل القوى الوراثية والبيئية التى تختلف أهميتها النسبية من شخص لأخر)[2].

الذاتية والخلق:

عند الحديث عن الذاتية والخلق يدور فى الذهن سؤال:

هل الأخلاق هى الذاتية؟ أم أنها من أطروحات الذاتية؟

تقع الإجابة على هذا السؤال من واقع المعالجة الموضوعية له، فإذا كان السؤال عن الذاتية الداخلية كانت الإجابة بالنفى الجزئى لأن الأخلاق علامة على الذات وليست جوهرا لها، وإذا كان السؤال عن الذاتية من تفاعليتها الإجتماعية ومفاعلاتها الإنسانية، فإن

(١) د. حلمى المليجى: سيكلوجية الإبداع ص ٢٠٥ ط دار المعرفة النموذجية أسكندرية ١٩٨٤ طبعة ثالثة.

(٢) د. حلمى المليجى سيكلوجية الإبداع ص ٢٠٦ ط دار المعرفة الجامعية اسكندرية ١٩٨٤ طبعة ثالثة.

الأخلاق عندئذ تكون مظهرا خارجيا مطابقا للذات الإجتماعية. ويحدث الترابط بين الذات والخلق (كثيرا ما يستخدم هذان اللفظان كمرادفين، والواقع أن الخلق اضطلاح تقييمى يشير إلى سمات شخصية معينة، من حيث هى مقبولة أو غيرمقبولة اجتماعيا.. أى أن الخلق هو الشخصية مقيمة أخلاقيا أى فى ضوء المعايير والقيم الإجتماعية الساندة فى المجتمع)[1].

ومن هنا يتضح أن الربط بين الذاتية والأخلاق ليس ربطا نهائيا، لأن معايير الأخلاق سواء كانت دينية أ, أجتماعية، ليست ثابتة فى كل زمان ومكان، فالناس لا يدينون واحد، والعادات الإجتماعية أبعد ما تكون من الوحدة والثبات.

السمات العامة للذاتية:

نصل فى هذه الفقرة إلأى محاولة رصد السمات العامة للذاتية وهى تتكون من عناصر عديدة نجملها فيما يلى:

١ - **المظاهر الموضوعية** للسلوك مثل الخصائص الجسمية والموضوعية كالطول.

٢ - **العوامل الوراثية** التى يحصل عليها الشخص من والديه.

٣ - **الدين**: الذى يعتنقه الشخص يؤثر إلى حد كبير فى ذاتيته إن كان منفعلا به أو متفاعلا معه. أما ما عدا ذلك فتأثير الدين على الشخص يكون ثامويا وشكليا فقط

٤ - **الثقافة**: ولا نقصد هنا التعليم المنتظم فقط، بل مجموع الخبرات الاجتماعية والإنسانية مضافا إليها هذا النوع من التعليم المنظم.

٥ - **النشاط الإنسانى**: ذلك العمل الذى يؤديه الإنسان والمركز السلطوى الذى يصل إليه الإنسان عن طريق هذا العمل.

٦ - **الهوايات**: وهى مجموع الأنشطة التى يؤديها الإنسان بعيدا عن العمل العادى وقد يكون لهواية من هذه الهويات قوة تؤثر إلى حد بعيد فى ذاتيته.

(١) المرجع السابق ص٢٠٩.

هـذه بعـض العـوامل الى تـؤثر فى ذاتيـة الإنسـان وتبقى عـوامل عـديدة مثل الحـوادث الزمنية، وبعض الظروف الإجتماعية والإقتصادية والنفسية والصحية التىتؤثر فجأة على سلوك الإنسان وتحوله من شخص إلى شخص آخر، وتضطره إلى سمات أخرى للذاتية منها:

أ - **العدوان المباشر**: وهو محاولة الإنسان الإعتداء على مصدر الإحباط كالذى يهم بقتل رئيسه فى العمل لسوء معاملته له ودفعه دوما إلى طريق مسدود.

ب - **التعويض**: التعويضنوعان: تعويض صرف يحاول الشخص فيه التعويض عن شعوره بالنقص بأسلوب شاذ، تعويض عادى: هو الذى يحاول فيه الشخص تعويض أى نقص فيه بطريقة عادية كالذى يشعر أن لديه نقص فى تعلم لغة فيحاول أن يتعلمها.

جـ - **النقص**: يلجأ إليه من يشعر بنقص معين كالتقصير الذى يرافق الطويل دائما.

د - **التبرير**: يصعب على الشخص أن يعترف بفشله. ولذلك يلجأ إلى تبرير هذا الفشل. وخلق الأعذار لنفسه ولغيره

هـ - **الإسقاط**: وهو أن يلجأ الشخص إلى إسقاط ما فى نفسه على الأخرين فينسب ما يقع فيه. من زلات وأخطاء على الأخرين[1]

فى السطور السابقة بعض السمات العامة؟ للذاتية الإنسانية، عندما ينتقل الإنسان من صورة للذاتية الخارجية إلى ذاتية أخرى.

وعندما نتعرض بعد قليل –للذاتية المتضخمة فلا يجب أن تغيب عنا المعلومات السابقة عن النفس الإنسانية. عوامل تأثرها وسمات تفاعلها - كى تصل بيسر إلى إبراز سمات الذاتية المتضخمة.

وسوف نعالج الموضوع معالجة علمية تستوجب أن تكون البداية بدراسة الذاتية المتضخمة فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

(١) د. عباس محمود عوض: علم النفس العام ص ١٥٣. ١٥٤. ١٥٥ ط دار المعرفة الجامعة اسكندرية ١٩٨٦ طبعة ثالثة (نقل بتصرف).

الفصل الثانى

دراسة الذاتية المتضخمة

أولا: فى ضوء القرآن الكريم:

لعل اول ما يثير حيرة الباحث هو غزارة المادة الخاصة بالذات المتضخمة فى القرآن الكريم، وعدم اهتمام علماء المسلمين بدراسة الذات المتضخمة من خلال المادة الغنية فى القرآن الكريم، والذات المتضخمة يشار إليها فى القرآن الكريم بالكبر والتكبر والاستكبار وكل مادة كبر (أى زاد حجمه).

وقبل أن نعرض لسلوكيات وأنماط الذات المتضخمة فى القرآن الكريم نقول إن النفس البشرية لا تستطيع العيش فى الحياة الدنيا إلا من خلال استقامتها مع فطرتها –أى صياغتها - الأولى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء ٢٨).

فالضعف فطرة وحقيقة فى الإنسان وقوة الإنسان تكمن فى اعتماد واستناده على القوى القاهر سبحانه وتعالى وهذه الفكرة البسيطة هى جوهر قوة الإنسان فى الحياة، واذا استمد الإنسان قوته من خالقه سبحانه وتعالى أصبح أكبر قوة فى الكون وسخر الله تعالى له كل شئ لأنه وهو يمارس قوته فى ساحة الحياة يمارسها وفق إرادة الله سبحانه وتعالى، وهذا (الوفق) يحافظ على توازن الذات البشرية ويقاوم تضخمها إلا أن الصورة المسجلة عبر التاريخ لنشاط الإنسانى فى الأرض تخالف بنسب متفاوته ومتعاكسة هذا النهج.

ولقد وصل الإنسان من انفلاته من هذه القاعدة إلى حد دعوة الناس لعبادته هو وسوف نعرض الأن للذاتية المتضخمة فى القرآن الكريم لنقف على صراع النفس من ذاتيتها الفطرية وهى تنسلخ منها صاعدة إلى مجد موهوم نازلة إلى سحيق محتوم.

أ - أنماط التضخم الذاتى (دراسة أفقية):

1 ـ التضخم الحاقد:

تدافع الذات المتضخمة عن فاعليتها بالتحقير من شأن غيرها، فوجود إبليس وآدم فى مكان واحد كان وجودا مقبولا طبيعيا ولكن ذات إبليس تضخمت وأصبح وجود آدم معه يمثل له مشكلة فحاول أن يقتلعه من مكانه ولجأ فى ذلك إلى طريقين:

الأول: التحقير من شأنه فرفض السجود له بحجة أنه –أى آدم - من طين

الثانى: محاولة إخراجه من الجنة بالإغواء لأنه أدرك أن قوة آدم ستكمن فى اعتماده على الحق سبحانه وتعالى فأراد أن يبعده عن هذه القوة

قال تعالى: "قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيه.. "الأعراف: ١٣

أمره بالخروج من الجنة لأن ذاته تضخمت وفسدت، وبينت الآية أن الذات المتكبرة لا يقف تضخمها عند حد معين وذلك فى قوله (تتكبر) لأن فى هذه اللفظة تفاعل للتكبر أى تناسى له.

ولذلك فالنتيجة التى سنخرج بها الأن من هذه الآية: أن الذاتية المتضخمة ذاتية متفاعلة تفاعلا متناميا. ولكنه تفاعل سلبى لا يزيد الحياة إلا تعقيدا وتعتيما.

2 ـ التضخم فى الذات والكفر:

قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة ٣٤).

وفى هذه الآية نمط آخر للذاتية المتضخمة ذاتية عرفت معرفة جيدة. وعرفت أنه سبحانه وتعالى واهب الوجود لكل شئ. ومع ذلك أبت أن تنفذ أمره وأستكبرت وتعالت،

هذه ذاتية إبليس والبحث فى قصة إبليس يكشف لنا أن الذاتية المتضخمة تعشق التكبر بل تتلاشى فيه. فإبليس عندما طرده الحق تعالى من الجنة وأعاده، هذا الطرد إلى حقيقة نفسه الضعيفة لم يشأ أن يتوب ويحظى برضا الله تعالى وجنته، بل فضل على ذلك أن يعيش متكبرا متعال.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الأعراف ١٣: ١٦).

فى هذه الآيات بدت ملامح الذاتية المتضخمة فإبليس يرضى بالطرد من رحمة الله تعالى فى مقابل أن يتمتع بتكبره.

نتيجة

هذه القاعدة السابقة فى ذاتية المتكبر تساعد على فهم ودراسة أصحاب هذا السلوك، ومن ناحية أخرى تكشف لنا عن القسوة والمعاناة التى يلقاها كل من يتعامل مع أصحاب هذه الذات المتضخمة إلا أن هذه المعلومات تساعدنا إلى من يتعامل مع أصحاب هذه الذات المتضخمة إلا أن هذه المعلومات تساعدنا إلى حد كبير فى علاج هذه الذاتية المتضخمة، وإن كانت نسبة النجاح فى علاج هذه الحالات ضئيلة جدا وغير مضمونة فى كثير من الأحيان.

3 ـ الذاتية المتضخمة والصراع:

يلازم الصراع الذاتية المتضخمة أنى وجدت حتى لكأنه مظهرا أساسيا لها لأن الذاتية المتضخمة لا تكتفى بالتعالى والتعاظم المتنامى داخلها، ولكنها تصنع لهذا التعالى وذلك التعاظم مجالا خارجا عن الذات مطروحا فى ذوات الآخرين. وكل صراع سواء كان عاما أو خاصا، فإن للذات المتضخمة وجود فيه إن لم تكن عينه أو هى هو.

وفى صراع الحق مع الباطل فى الحياة، أخذت الذات المتضخمة جانب الباطل دائما، لأن الحق لا يناسب طموحاتها ولا يوافق نزعاتها ونزواتها بينما لا تجد فى الباطل قيودا ولا حدودا وهذا ما يفسر شغف بعض الناس بالباطل وتنسكهم له والقرآن الكريم يرصد صراع الحق مع الباطل وفى جوهره تكمن الذات المتضخمة المستكبرة أو يكمن فيها ويخرج منها.

أ - قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ..﴾ (البقرة:٨٧) –فى هذه الآية وصف دقيق لصراع النفوس المستكبرة مع النبوة، عبر عنه الحق تعالى أحسن تعبير حين قال: عن علة الإستكبار إن الرسول جاء (بما لاتهوى أنفسكم) لأن النفس المستكبرة كما ذكرنا آنفا لا تجد لها مكانا فى ظلال الحق ولا يجتمع شملها إلا فى رحاب الباطل.

وعن تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير:

ينعت الحق تبارك وتعالى بنى اسرائيل بالعتو والعناد والإستكبار على الأنبياء وأنهم إنما يتبعون أهواءهم

وهذه الآيه تكشف عن نوع من أنواع تضخم الذات. لأن الذات المتضخمة يمكن أن تكون ذات فرد، أو أسرة كاملة أو قوم من الأقوام، وتضخم الذات عند اليهود تضخم قومى عام. فقد تجد عند بعض الأفراد منهم بعض التواضع إلا أنك لا تجد ذلك فى سلوكهم فى مواجهة غيرهم من الأقوام[1].

ب - قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (الجاثية: ٣١) هذه الآيه توضح لنا أن التضخم فى الذات يؤدى إلى الإجرام والصراع ويبعد بالإنسان عن حقيقته الأولى وفطرته النقية.

(١) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ١ ص١ ط مكتبة الصحابة بطنطا

جـ - **قوله تعالى:** ﴿ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ (الأحقاف: ١٠) - خلاف بين القرآن الكريم والكتب السابقة التى أنزلها الله سبحانه وتعالى، فإذا آمن نفر من بنى إسرائيل بالتوراة مثلا فلماذا يأتى نفر منهم بعد ذلك ويكفرون بالقرآن.

الخلاصة: وأنها الذاتية المتضخمة التى قبلت شيئا فى وقت ما ورفضته فى وقت آخر. وكان سببا كافيا لنشوء الصراع بين المسلمين واليهود بعد ذلك.

د - **قوله تعالى:** ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ [1] وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٣)[2].

جاءت الآيه السابقة فى معرض التميز بين الذين وقفوا على حقيقة ذواتهم وعلموا ضعفها، فاستمدوا لها القوة من الله تعالى، وبين الذين الذين تضخمت ذواتهم حتى وجدوا فى عبادة الله تعالى ذلا وهوانا فاستنكفوا ذلك وانفوا منه، ونشأ الصراع بينهم وبين الذين ساروا فى طريق الهداية والرشاد.

هـ - قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ (الأعراف: ٣٦). كيف استكبروا عنها؟

القريب للذهن استكبروا عليها وعنها؟ ابن كثير: استكبروا عن العمل بها[3]. الجلالين: عنها. فلم يؤمنوا بها.[4]

ما سبق من تفسر لا يوفى الآيه حقها وتميل النفس على ضوء هذه الدراسة إلى أن "استكبرواعنها" أى تجاوزها. لأن الآيات ترسم حدودا للبشر من أجل خيرهم فى الدنيا

(١) يستنكف": يتكبر ويأنف.

(٢) تفسير جلالين ص ٩٠ ط دار التراث. القاهرة.

(٣) ابن كثير جـ٢ ص ٢١١.

(٤) الجلالين ص ١٢٧.

والآخرة، إلا أن الذوات المتضخمة تجد فى هذه الآيات عثرات أمام انطلاقاتها المخبولة إلى اللا محدود.

وفى هذه الأيام تشاع أقوال فى المجتمع الاسلامى تنقل عن البعض ممن يدعون العلم من المسلمين المستغربين يقولون أننا يجب أن نؤمن بالأديان كتراث روحى، ولا نقف عندها إذا أردنا الحركة والعمل فى الحياة، هؤلاء هم الذين استكبروا –أى تجاوزها - ونظروا اليها على أنها نظم ساذجة لا تنهض بها حضارة وهم فى الحقيقة برؤيتهم هذه يدمرون الحضارة ويزرعون الصراع.

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأعراف: ٤٠).

كيف تفتح لهم أبواب السماء؟ لا تفتح لهم لأنهم تجاوزوا كل نظام ضبطه الله سبحانه وتعالى.\

وشتان بين من لا يطبق شرع الله تعالى كلا وخبلا وبين من لا يطبقها لأنها لا تصلح فى نظره, فالأول له رجال والثانى له نكال ووبال.

ز - قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الأعراف: ٧٥).

بمجرد أن أعلن الذين استضعفوا إيمانهم برسالة نبى الله تعالى صالح عليه السلام، أعلن الذين استكبروا كفرهم بهذا النبى، وهذا مظهر خطير من تفاعلات النفس البشرية المتضخمة، فمن يقف على سبب كفر هؤلاء، سوف يتعجب كثيرا ويتحير أكثر لأنه يرى أن هؤلاء أضاعوا دنياهم وأخراهم بسبب تكبرهم أن يؤمنوا بنبى آمن به الضعفاء من الناس إنهم لم يرفضوا جوهر الرسالة، ولا نقضوا شرعها إنما تحدد موقفهم على ضوء إيمان الضعفاء.

ومن الممكن أن تنتج بهذه المزايا النفسية التى يرصدها لنا القرآن الكريم فمجال الدعوة الإسلامية الحديثة للموازنة بين استعداد الأفراد لقبول هذه الدعوة أو رفضها، قبل أن نخوض فى موضوع الدعوة ونقدم للناس جوهرها. أى يجب علينا أن ندرس البيئة المستقبلية للدعوة والمتقبلة لها. قبل أن نلقى بالبذور فى هذه الأرض الجديدة.

جـ - قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾(الأعراف: ٨٨) –هذا نوع من الإستكبار بفرض الصراع فرضا ولا يترك مجالا للسلاملأنه يطلب من النبى والمؤمنين معه أن يتركوا ديارهم وأموالهم أو يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان، لقد كبرت ذوات هؤلاء حتى ظنوا أنهم بكبريائهم ملكوا الأرض ومن عليها ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ والمهم هنا هو عدم القدرة على التعايش من جانب الذوات المتضخمة مع الغير فى مكان واحد، إلا إذا هذا الغير نمطا متكررا، وعند ذلك يدمره ويدمر نفسه أى أن المتكبر يتمنى أن تحاكيه فى كل شئ فإذا ما أتقنت ذلك إنقلب عليك مرة أخرى فهو لا يرى إلا نفسه فى الوجود. لان ذاته تتضخم حتى تلتهم، وهذا من واقع خياله المريض.

ط –قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢١) –تختلف لغة الذات المتضخمة عن غيرها من الذوات، فعندما يتجه الضعفاء باللوم على الذين استكبروا.. يقولون لهم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾أى أنهم يعتبرون أن طريق الإيمان يجب أن يمر من خلالهم هم –أى من خلال ذواتهم - فهم يجعلون من أنفسهم مصدرا للهداية ومهبطا للوحى والتلقى وكل ذات متضخمة دأبهاهذا النمط من السلوك وبعض الناس يتصورون أن الإيمان لايأتى للناس إلا من خلال مكاشفتهم والهاماتهم وظنونخم مع أن سلوكهم لا يتسق كثيرا مع ما يرضى الله تعالى ورسوله ﷺ

–وبعض الناس يكتشفون فى نهاية الطريق أنهم آمنوا بذواتهم كثيرا وآمنوا بربهم قليلا، وأحلوا قومهم دار البوار.

تنوع الصراع

ويستمر الصراع فى الأرض بسبب تضخم الذات البشرية، وفى حلقة من حلقات هذا الصراع يقف المشركون أمام رسول الله ﷺ ويعلنون موقفهم من دعوته والذى ينم عن ذواتهم المتضخمة المتعالية فيقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١).

تصور هذه الآيه جانبا تضخم الذات البشرية وما ينتج عن هذا التضخم، فبالنسبة للتضخم (استكبروا فى أنفسهم) أى أن الاستكبار حدث فى داخل الذات، أى تضخمت ذواتهم من الداخل لأن التضخم لا يظهر على الذات من الخارج إلا فى صورة أعراض شكلية تنقلب إلى أعراض لازمة مع الوقت وبالنسبة لما ينتج عن التضخم تقول الآية الكريمة «وعتوا عتوا كبيرا» فقد وصف الفعل ﴿وَعَتَوْ﴾ بالكمية فجعلها ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[1].

ولعل الأستاذ سيد قطب من بين المفسرين الذين فطنوا لموضوع تضخم الذات، فعن هذه الآية يقول: (لقد عظم شأنهم فى نظر أنفسهم فاستكبروا وطغوا طغيانان كبيرا، لقد تضخم

شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزنا صحيحا، لقد عادوا ما يحسون حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقة ووزنها وزنا صحيحا، لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت فى أعينهم وتضخمت وعظمت حتى ليحسبونهم شيئا عظيما فى هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله، ليؤمنوا ويصدقوا)[2].

(١) العتو: هو الاستكبار ومجاوزة الحد (المعجم الوجيز ص ٤٠٦).

(٢) الاستاذ سيد قطب: فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٥٥٨ ط دار الشروق ١٩٨٢م.

ولقد وضع الأستاذ سيد قطب يده على نقطة الضعف فى الذات البشرية حين تتضخم.. وتنطلق خارج حدودهاالطبيعية وتتجاوز الرسول ﷺ وتطلب رؤية الله تعالى من غير واسطة، وبرغم إختفاء الكثير من ألوان الشرك، إلا أن رؤية الله بطريق المكاشفة ما زالت تمثل أملا بالنسبة لكثير من الناس لقد طلبها المشركون عن كفر، وهؤلاء يرجونها عن حب، ولكن تضخم الذات هو القاسم المشترك عن الجميع فلا يطلب رؤية الله تعلاى فى الدنيا من يستحضر عظمته تعالى فى قلبه ولكن يطلبها من يستحضر عظمة نفسه ولا شئ غيرها

لا إله إلا الله:

قال تعالى: «إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» الصافات ٣٥، ٣٦

إن لا إله إلا الله تصيب أصحاب الذوات المتضخمة بنوع من رد الفعل المعاكس لأن الكون كله يتلاشى فى لا إله إلا الله، وهم يرفضون هذا التلاشى القوى، فالذات المتضخمة لا ترى شيئا يحدها، ناهيك عن شئ تتلاشى فيه، ولذلك ينقلبون – فى مواجهة هذا الموقف - بالسب والعنت لرسول الله ﷺ ويقولون كيف نترك آلهتنا (لشاعر مجنون) فهذا موقف آخرمن مواقف الصراع التضخمى فى القرآن الكريم.

تعدد التضخم:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾(غافر: ٣٥).

هذا لون من التضخمية يقترن بالمجادلة فى آيات الله تعالى بغير دليل يستحق أصحابه بسببه مقت الله تعالى، ومقت الذين آمنوا، ولكن الله تعالى يخبرنا بطبيعة هؤلاء بأنهم مطبوعين على هذا التكبر المقيت.

قال تعالى: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (النحل: ٢٩)..

فهؤلاء المتكبرين لهم مكان البئس الحقير المستقذر، جزاء تكبرهم فى الحياة الدنيا.

ويقول: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾(الزمر: ٦٠)

ويقول: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (الزمر: ٧٢)

ويقول: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (غافر: ٧٦)

ويقول تعالى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ ﴾ (فاطر ٤٢، ٤٣)..

فالبداية كانوا ينتظرون النذير ويباهون بهذا الانتظار أنهم الصفوة التى تتطلع إلى الفجر الجديد، فلما جاء الضياء كانوا أول من حاول إطفاء، وإخفاءه فالذات المتضخمة تستكبر حتى على أملها، وتستعلى على هدفها.

قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾ (نوح: ٧)

فى الآية السابقة صفة لازمة للذات المتضخمة وهى (مقاومة الحقيقة) فنبى الله تعالى نوح عليه السلام يدعوا قومه إلى معرفة الله تعالى، ومع أن ذلك يحقق لهم السعادة فى الدنيا والآخرة إلا أنهم يهربون منها –من الحقيقة - ولكنهم لا يتركون للحقيقة لحظة واحدة يتفحصوها ولكنهم يضمون ثيابهم على أعينهم ويجعلون أصابعهم فى آذانهم قبل أن يولوا مدبرين (فان لم يستطيعوا الفرار). لأن الداعية واجههم مواجهة. وتحين الفرصة ليصل

إلى أسماعهم بدعوته، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم وأصروا على الضلال واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى واصرارهم على الضلال، تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة. تبرز فى وضع الأصابع فى الآذان وستر الرءوس والوجوه بالثياب والتعبير يرسم بكلماته صوره العناد الطفولى الكامل.. فآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع ولكنهم يسدونها بعنف بالغ كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها فى آذانهم ضمانا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا، وهى صورة غليظة للإصرار والعناد، كما أنها صورة بدائية أطفال البشرية الكبار)[1].

يرسم المؤلف صورة صادقة للنفس المتكبرة المتضخمة إلا أن الجديد الذى أضافه هو وصف الذات المتضخمة بأنها تعانى من طفولة بدائية وهو بذلك يضع يده على جانب من جوانب الذاتية المتضخمة.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان:٦)

فى هذه الآية صورة من تفاعل الذاتية المتضخمة، فهى هنا لا تهرب من الحقيقة كما فى الآية السابقة، ولكنها تقاومها، لأنها تستجلب كل الثقافات والأفكار، وتطرحها بديلا عن شرع الله سبحانه وتعالى، ثم تعقب ذلك بالسخرية من شريعة الله سبحانه وتعالى، ولكنها تعانى من الضيق والغيظ حين تضطر إلى سماع آيات الله تعالى سماعا مباشرا.

قال تعالى: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الجاثية: ٨).

وهذه حالة أخرى من حالات الذاتية المتضخمة.. فصاحب هذه الذاتية يجلس لسماع البراهين الربانية ويدور بداخله صراع عنيف بين الإذعان للحقائق والإمعان فى

(١) المرجع السابق جـ٦ ﷺ ٣٧١٢.

الضلال ولأن الحقائق لا تناسب ذات المتكبر، فإنه يصر على البقاء على حالة وكأنه لم يسمع شيئا يتلى عليه. (يسمع آيات الله تتلى عليه) أى تقرأ عليه (ثم يصر) أى على كفره وجحوده استكبارا وعنادا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

مقاومة الحقيقة:

قال تعالى:﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل: ٢٢)

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ (المنافقون: ٥)

وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾

(المؤمنون: ٦٦، ٦٧).

الآيات السابقة توضح الكيفية التى تتم بها مقاومة الذاتية المتضخمة للحقائق إنها محاولة مصرة بل مسرفة فى الإصرار لرفض الحقيقة رفضا تاما.

(إننا حين نعرف الحقيقة مسبقا ولا نكون مستعدين للاعتراف بها، إنما نعانى مرضا فى الروح، وتشاؤما عميقا يهدد كامل المجتمع)[2].

فهذا الموقف الذى تتخذه الذات المتضخمة من الحقيقة ليس موقفا عناديا كما يبدوا من أول وهلة، إنه موقف يعبر عن مرض فى الروح، وتضخم فى الذات ويصف الله سبحانه وتعالى هذا المرض بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ (غافر: ٥٦)

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص ١٤٨.

(٢) جون لويس: الإنسان ذلك الكائن الفريد جـ٣ ص ٢٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ ترجمة د/ صالح جواد الكاظم.

فهذه الآية الكريمة تجسم هذا المرض من خلال الصورة التى ترسمها الكلمات وتظللها المعانى.

فائدة

والفائدة التى سنخرج بها من تحليل الذات المتضخمة هى أنها ذات مريضة تجب معالجتها، أو محاصرتها إن لم يجد العلاج ويصف كثير من العلماء النفس هذه الذات بإنها ذات هستيرية (تتميز بعدم النضج والتمركز حول الذات فى هذا الحديث والمظهر..)[1]

إنها ذات تدور حول نفسها وتفقد شيئا فشيئا اتصالها بالواقع، بل تتعاكس معه فى كثير من الأحيان، إنها تستشعر أن العالم خلق خصيصا من أجل أن توجد فيه هى، فهى أكبر من الزمان والمكان والواقع والخيال. أنها هى هى ولا شئ غير ذلك. إنه حلم هستيرى يقاوم الواقع، وينهار أمامه عند نهاية الطريق.

ب - درجات التضخم الذاتى (دراسة رأسية)

فى الصفحات السابقة قدمنا صورة أفقية للذات المتضخمة من خلال عرض القرآن الكريم لها. وعلى الصفحات التالية تقدم دراسة رأسية لهذه الذات.وتفرض علينا واقعية البحث الرأسى أن تختار شخصية واحدة تضخمت ذاتها ونتابع تضخم هذه الذات، وأعراض هذا التضخم من خلال عرض القرآن الكريم لهذه الشخصية.

ومن المؤكد أن شخصية فرعون هى الشخصية التى تضخمت ذاتها ووصلت إلى النهاية فى هذا المجال، حتى أعلن على الناس ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ ولذلك فدراسة هذه الشخصية تفيد الباحثين فى ميدان النفس البشرية فائدة جمة لأنها صورة صادقة معبرة عن واقعها وعن مرضها على السواء.

وسوف نحدد ملامح هذه الصورة من خلال عدة مواقف قرآنية متتابعة.

(١) د/ عبدالمنعم الحفنى: موسوعة علم النفس والتحقيق النفسى جـ٢ ص ٣٧٣ ط:مكتبة مدبولى ١٩٧٨م.

الموقف الأول: بداية الفاعلة للتضخم:

لم يقدم القرآن الكريم صورة مفصلة عن حياة فرعون.. طفولته وشبابه.. وكهولته.. لعل مرجع ذلك إلى أن هذا الجزء من حياة فرعون غير فاعل فى سباق القصة وغير باعث على تكوين العبرة، أو أن فرعون فى فترة شبابه وقبل أن ينصب فرعونا لم تكن ذاته تضخمت بعد، أو أن القرآن الكريم أراد أن ينقل لنا صورة عن فرعون واحد يتشابه مع عشرات الفراعين ولذلك سنبدأ بالعرض الأول لصورة فرعون فى القرآن الكريم.

البداية الفاعلة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٤).

هذه بداية قوية لقصة فرعون المتعالى، وهى بداية تشتمل على الأسس التى تكونت منها شخصية فرعون ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى تكبر وتجبر وطغى ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى أصنافا قد صرف كل صنف قيما يريد من أمور دولته ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ يعنى بنى إسرائيل، وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم/ هذا وقد سلط عليهم ذلك الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال، ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعبته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحى نساءهم إهانة لهم واحتقارا).[1]

كل ما حدثتنا عنه هذه الآية الكريمة من أفعال تعتبر عرضا لمرض فرعون بالتضخية والحقيقة أن تضخم الذات ليس مرضا نفسيا فى بدايته –لأنه موجود عند كثير من الناس ولكن بنسبة غير مرضية - إلا أنه يتحول مع الوقت إلى مرض عضال لا علاج له بالقضاء على صاحبه، ففى بداية الأمر تفقد الذات المتضخمة شيئا فشيئا القدرة على معايشة الواقع، ثم بعد لك تتمركز حول اتها، وتصاب بهوس العظمة (وهوس العظمة: هو تعظيم

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص ٣٧٩ ط مكتبة الصحابة - طنطا.

الذات وتضخيمها بشكل مرضى يؤدى إلى إصابة الفرد بأوهام العظمة. بسبب تلف القدرة على إختيار الواقع.. ومن ثم تتضخم اته بشكل مبالغ فيه. وتستحيل هى إلى كل عالمه)[1]

هذه السطور تساعدنا على فهم شخصية فرعون فى المرحلة التى سبقت عرض الموقف الأول من القصة فى القرآن الكريم ولكن يجب لفت النظر إلى براعة القرآن الكريم فى العرض، فبرغم جمال اللفظ ودقة المعنى إلا أن البعد العلمى فى غاية الوضوح، لأن تضخم الذات دائما وفى كل زمان يكون على حساب ذوات أخرى مستضعفة.

ولذلك فالقرآن الكريم يقول: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا هو الخبر الأول، والخبر التالى له مباشرة هو ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فهناك تلازم يشبه تلازم المقدمة والنتيجة.ويمكن استنباط خاصية أخرى للذات المتضخمة، وهى خاصية اختزال كل الذوات المجاورة فى ذات المتذخم بمعنى أن الرجل حين يكون، متسلطا متضخم الذات فى بيتهفهذا التضخم يخصم من كل ذات فى الأسرة فلو افترضنا أن كل فرد فى الأسرة له مساحة تضخمية قدرها عشرة أمتار فإن الأسرة التى عددها خمسة أفراد يكون حجم تضخمها العام خمسين مترا فإذا تضخمت ذات من هذه الأسرة وسيطرت وأخذت هذه المساحة (خمسين مترا) فإن نسبة التضخم لكل أفراد الأسرة تصبح صفرا، لأن الذات السوية ذات متفاوتة متفاعلة مع الآخرين بينما الذات المتضخمة تضر الآخرين وتعقد حياتهم (إن الشخص السوى هو الذى

يعمل للآخرين ويوجههم ويسعى لخيرهم وهو الشخص الذى يمكنه أن يهتم بمساعدة الآخرين، وأن يكون معهم علاقات شخصية وعاطفية وثيقة وعلاقات مبنية على الإهتمام والرعاية، وليس على مجرد الرغبة فى التعالى أو ممارسة السلطة)[2].

---

(١) موسوعة علم النفس ص ٤٤٥.

(٢) د/ فرج عبدالقادر طه سيكولوجية الشخصية المعرفة للإنتاج ص ٢٧ ط مكتبة الخانجى. القاهرة ١٩٨٠ م.

ومن هنا تأتى خطورة الذات المتضخمة لأن ضررها لا يتعلق بصاحبها فقط بل هو فى الأساس ينصب على الآخرين

الموقف الثانى: التدرج فى التضخم:

من المؤكد تاريخيا أن المصرى القديم من الفراعين كان يبدأ حياته عاديا ثم ينصب فى ةقت ما ملكا وإلها وحاكما على المصريين. ولذلك فتضخم الذات تضخما متدرجا فهو فى بداية الأمر يقبل المناقشة والبحث فى الكون عن إله غيره ولكنه فى النهاية يصل إلى درجة الجزم بأنه هو الإله الأعلى.

فعن المرحلة الثانية (محاولة البحث) يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (طه ٤٩ - ٥٢).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الشعراء ٢٣: ٢٨).

بعد هذه المناقشة اهتزت ثقة فرعون فى نفسه وأدرك أنه ليس بإله لأن سيدنا موسى عرض عليه وعلى قومه صفاته الإلهية من خلال تفاعل القدرة الإلهية فى الكون –السموات والأرض، المشرق والمغرب - وفرعون ذرة من ذرات هذا الكون، ولكن موسى عليه السلام بهذه الحجة القوية، وأن يحاصر هذه الذات المتضخمة بعد أن حوصرت من الداخل. وفى محاولة الدفاع عن هذه الذات المتضخمة لجأ فرعون إلى طريقين: الطريق الأول تسخير سلطته واستعمال قوته لأنهاء هذا الموقف ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (طه: ٢٩).

وعلى مر العصور وكر الدهور ما زال صاحب الذات المتضخمة ينهى مناقشته بهذا الأسلوب إذا استشعر أن الخصم يلجئه للحق.

الطريق الثانى: محاولة البحث فى الطبيعة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧).

إن التضحية عند فرعون هيأت له صورة الإله مثل صورته هو أو أكبر، أو مثلها ولكن فى مكان بعيد، ومن هنا بدأ يتخذ أسبابا مادية لمشاهدة الإله الذى حدثه عنه موسى عليه السلام، ومن الممكن أن يكون فرعون مدركا تماما أنه لن يستطيع رؤية الإله. ولكنه لجأ إلى هذه الحيلة الخبيثة ليخبر الناس بعد أن ينزل من فوق هذا الصرح، أنه لم ير إلها قط، وأن موسى عليه السلام كاذب فيما ادعاه: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ يا هامان ابن لى بناء عاليا لعلى أبلغ به أسباب السوات لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ هكذا يموه فرعون الطغية ويحاور ويداور كى لا يواجه الحق جهرة. ولا يعترف بدعوة الوحدانية التى تهز عرشه. وتهدد الأساطير التى قام عليها ملكه. وبعيد عن الإحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه وبعيد أن يكون جادا فى البحث عن إله موسى على النحو المادى الساذج.

وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حدا يبعد معه هذا القصور، إنما هو الإستهتار والسخرية من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبيت من جهة أخرى وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن، فى حديث الرجل المؤمن، وكل هذه الفروض تدل على اصراره على ضلاله، وتبجحه فى جحود، ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ ﴾ وهو مستحق لأن يصد عن السبيل، بهذا المراء الذى يميل عن الاستقامة،

وينحرف عن السبيل، ويعقب السباق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ إذن ليس هناك موقف واضح من داخلية فرعون. هل كان يدعى الالوهية عن اعتقاد، أم أنه كان يخادع كعادة المتضخمين كعادة المتضخمين دائما فى كل زمان ومكان؟

الموقف الثالث: الادعاء المتضخم:

قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات: ١٧: ٢٤).

هذه الآيات تصور الإرتباك الذى وقع فيه فرعون، عندما واجهة موسى بهذه الحجة القوية (الآية الكبرى) وبرغم هذا القدر الضخم من التلطف فى الدعوة (هل لك إلى أن تزكى) هل ترغب فى التطهر الجسدى والروحى والأخلاقى وفى كل شئ، إلا الحجج المتخفية تحت هذه الكلمات اللطيفة أربكت فرعون، ولذلك قام بثورة سريعة قوية لمواجهة هذه الحقيقة وربما ينبئ هذا الإبقاء السريع فى رد الفعل إلى أن فرعون لم يكن يعتقد أنه إله حقيقى ولكنه كان يعتقد أن لعظمة ميرات لأسرته مدى الحياة، ورمز هذه الحقيقة عند الناس، هو الالوهية لمدعاة.

الموقف الرابع: الفرق فى التضخم:

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس ٩٠، ٩١).

الحديث عن خطورة الذات المتضخمة على الناس حديث ميعاد، ولكن هذه الآية الكريمة تصور خطورة الذات المتضخمة على صاحبها فها هى تضخمت حتى ضاق عليها

الكون فى داخل صاحبها وادعى بها الألوهية وهى نفسها التى أردته غريقا وهو يعدو خلف مخلوق مثله.

ولكن المهم لنا فى هذا البحث أن هذه الآية تؤكد أن فرعون كان يعرف الحقيقة ويعرف أنه ليس بإله ولكنه خادع للنهاية ولذلك يقول الحق تعالى (آلان)؟

هذا الإستفهام يؤكد أن فرعون كان يعرف الإله الأعلى قبل الغرق ولكنه غرق فى التضخم حتى غرق فى البحر.

ثانيا: فى ضوء السنة النبوية الشريفة:

تواكب السنة الشريفة فى بلورتها للذات المتضخمة القرآن الكريم وتوضح ماهية هذه الذات على نفس النسق القرآنى. ويصل النبى ﷺ -إلى عمق أسرار الذات المتضخمة، ويوضح للناس سماتها العامة.

ويخبر ﷺ - عن علاقة هذه الذات بالحق سبحانه وتعالى فيقول: " ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل حواظ مستكبر"[1] رواه البخارى فى هذا الحديث اشارتان على سبيل الإجمال:

الإشارة الأولى: تتجه إلى صفات النفس السوية وهى النفس التى تشعر بالضعف منها قوى مكانها وعظمت مكانتها فى الحياة لأن الضعف فى الحديث ليس هو الفقر كما يتبادر إلى الذهن. وإلا لأصبحت الجنة حكرا على الفقراء ومنهم من ضيع نفسه وأمته، وهو يبحث عن غير سبيل الرشاد فالضعف فى الحديث الشريف شعور يعبر عن حالة لا حالة تعبر عن شعور.

إنه العودة إلى الفطرة التى تستشعر جلال الله تعالى. وعظم خلقه وتبصر مكان الإنسان ومكانته فى كون الله تعالى العظيم. ومن هنا تصل إلى أحكام صائبة على أمور

(١) فتح البارى جـ١ ﷺ ٥٤ دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ

صحيحة. وهناك ينتقى الغرور وتختفى الشرور وتشرق النفس بنور ربها، ثم تستمر النفس فى هذا الطريق طريق الضعف وكأنها تؤدى تمرينا دائما على هذه الحالة عن طريق الخشوع القلبى فيتحول العبد من ضعيف إلى متضاعف ويستحق بذلك الجنة لأنه عاش عبدا ولقى ربه كذلك.

الإشارة الثانية: وهى تتعلق بصفة أهل النار وهى: أن يكون الإنسان عتلا وجواظا ومستكبرا لأنه إذا كان الشعور بالضعف يصحح خطوات العبد بين أفنان المعاصى والشهوات، فإن الإستكبار يظلم فطرة العبد، ويذهب ببصيرة النفس ويسد على العبد كل طريق إلى الرشد، وكل سبيل إلى الخير، لأن الأستكبار يجعل العبد يقوم بدور غير الدور الذى خلق له. وينزع عنه ثوب العبودية ولا يمنحه ثوبا آخر يرتديه، بل يتركه يبحث عن أردية لاحصر لها. ويظل عاريا عن حقيقته ومفهوم ذاته، ولذلك: فقد اعتبر تضخم الذات مرضا عصى العلاج بعيدا من الشفاء وتصبح –أى حركة للذات المتضخمة طريقا إلى مقت الله تعالى سبحانه وتعالى.. ولذلك يقول النبى ﷺ "لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء"[1] رواه مسلم.

يرصد هذا الحديث حركة جر الثوب خيلاء كدليل على تضخم الذات مع أن إرتداء الثوب الجميل الحسن من غير خيلاء لا يضر كما سنرى فى الحديث التالى

قال ص: "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر":فقال رجل[2]: ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسنة؟ قال: "إن الله جميل يحب الجمال –الكبر: بطر الحق وغمط الناس"[3].

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٤ ﷺ ٦٠ مكتبة الغزالى دمشق. بدون.

(٢) هو مالك بن مرارة البؤهاوى دليل المعالجين جـ٣ ﷺ ٦٧ ط دار الفكر. بدور.

(٣) رياض الصالحين ﷺ ٢٧٦ طالحلبى. بدون.

فى هذا الحديث يوصد رسال الله ﷺ أبواب الجنة فى وجه من كان فى قلبه ذرة من كبر، ولذلك كانت ولذلك كانت دهشة الصحابة عظيمة حتى استفسر احدهم عن هذا الكبر الذى يحرم العبد من الجنة، أهو شعور الإنسان بالسعادة والغبطة حين يلبس الثوب الحسن، وهو شعور فطرى طبيعى إنه ليس كذلك مع ما يدخل النفس من شعور بالعزة والإمتياز عند ارتداء الملابس الجميلة الغالية، وقد يصاحب ذلك شعور بالتكبر عند بعض أصحاب النفوس المضربة ولكنه شعور غير أصيل لا يلبث أن يزول وتعود النفس إلى صفوها، وتستلهم رشدها غير بعيد، أما الكبر الذى يحرم صاحبه من الجنة فهو بطر الحق بمعنى طمسه وقطعه ونكرانه، وغمط الناس، أى عدم إعطائهم حقهم بتقدير جهدهم أو احترام مكانتهم، وهذان عرضان من أعراض التضخمية فى الذات، لأن الذات المتضخمة ترى فى الحق عدوا لها، لأنها ركبت طريق المخالفة، وسارت عليه، وبنت مجدها الوهمى على جنباته فكيف لها تبصر طريق الحق أو تذعن لفروضه، وهى ذات تغمط الناس جميعا

لأنها تريد أن توسع لنفسها مكانا يستغرق الكون كله لا يجاورها فى هذا المكان أحد، فهى وحدها معبودة ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[1] أو عابدة فهى تستحق المكاشفة والإلهام والتوفيق والمعرفة وغيرها من البشر فى عداد الحيوانات الدراسة.

تلك هى بعض صفات الذاتية المتضخمة فى بعض أحاديث الصادق الأمين المصطفى ﷺ.

(١) سورة القصص: ٣٨.

الفصل الثالث:

تضخم الذات عن الغزالى:

للإمام أبى حامد الغزالى بحث قيم فى تضخم الذات الإنسانية من خلال الكبروالعجب ضمنه كتابه إحياء علوم الدين[1]، ويعتبرهذا البحث من المباحث العلمية التى سبقت فى فهم وتشخيص فعاليات الذات المتضخمة وإذا استثنينا بعض الأدلة الضعيفة فى هذا البحث فإنه لا غنى بعد ذلك لمن أراد أن يتحدث عن الذاتية المتضخمة.

يقول الإمام الغزالى:

(الكبروالعجب داءان مهلكان، والمتكبروالمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بعيضان..)

وقد ذم الله تعالى الكبركن كتابة، وذم كل جبارمتكبر، فقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾"سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغيرالحق.. " (الأعراف: ١٤٦).

وقال عزوجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥).

---

(١) وبرغم جودة هذا المبحث حول تضخم الذات إلا أننا يجب أن ننتبه إلى عدم التسليم بكل ما جاء فى الأحياء للأسباب الأتية:

أ - أنه من الكتب التى فى الدعوة إلى الذهد فى المال والعمل وهما من أهم مقومات الحياة الناجحة للأمة.

ب - أن كثيرا من مرويات الأحياء تدور بين الضعف والوضع مما يزيد صعوبة الاستنتاج العلمى الصحيح.

جـ - أن هذا الكتاب وإن عالج بعض أماض الأمه فى فترة من تاريخها إلا أنه لا يناسب الأمراض الأنيه

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(النحل: ٢٣).

وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١).

وبعد ذكر هذه الأدلة وغيرها من الحديث الشريف

والآثار تأتى بقول النعمانى بن بشير (ان للشيطان مصالى وفخوخا وأن من مصالى الشيطان وفخوخه: البطر بأنعم الله تعالى، والفخر بإعطاء الله تعالى، والكبر على عباد الله تعالى واتباع الهوى فى غير ذات الله تعالى)[1].

قدم الإمام الغزالى فى هذا الجزء من المبحث موقف الذاتية المتضخمة من العقيدة ووضع يده على تشخيص - سلوك المتكبر والمعجب، وذلك فى قوله "والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان " وهو ما تهدف إليه فى البحث من اعتبار تضخم الذات مرضا، يجب دراسته وفهمه ومحاولة فهمه ومحاولة علاجه على هذا الأساس وليست المسألة موقوفة على ضعف وقوة الإيمان فحسب، بل مستخلصهمن عوامل عديدة ومؤثرات كثيرة.

محاصرة الذات:

يحاول الإمام الغزلى محاصرة الذات المتكبرة والإلمام بها من خلال نقله لأقوال العلماء وهو ينتقى هذه الأقوال بحيث يجعلها تجمع بين التنوع والشمول فيقول (وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه. وقال أبو زيد. مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو أشر منه فهو متكبر فقيل له: فمتى يكون متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حال –وتواضع كل انسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته لنفس، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن معرفته بربه عزوجل ومعرفته لنفس،وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ما قدروا عليه.

(١) اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين جـ١٠ ﷺ ٢٢٨ ط ٢٤٤٣ ط دار الكتب العلمية بيروت. لبنان ١٩٨٩

وقال عروة لن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محمود عليها صاحبها إلا التواضع.

وقال يحيى بن خالد البرمكى: الشريف إذا تنسك تواضع والسفينه إذا تنسك تعاظم.

وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذى التكبر عليه بماله تواضع.

ويقال لا عز إلا لمن تذلل لله عزوجل. ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزوجل. ولا أمن إلا لمن خاف الله عزوجل. ولا ربح لمن ابتاع نفسه لله عزوجل وقال أبو على الجوزانى: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه، منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيرا، لطف به فى ذلك، فإذا هاجت فى نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصر الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عزوجل.

وعن الجنيد أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلة: التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها، الموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغله وبين يدية غلمان وإذا هم يعنفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنتعلى الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر، طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لى:مالك تنظر إلى؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيتهبمكة ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس، فوضعنى الله حيث يترفع الناس..

وتفاخرت قريش يوما عند سلمان الفارسى رضى الله عنه فقال: (لكننى خلقت من نطفة قذرة، ثم أعود جيفة منتنة، ثم آتى الميزان، فإن ثقل فأنا كريم، وإن خف فأنا لئيم)[1].

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥ - ٢٧٠

هـذه الأقـوال التى نقلها الامـام الـغزالى ألـفت الـضوء على كثير من جـوانب الـذاتيـة المتضخمة، وكانت أحيانا تصف العلاج –ولذلك طالت هذه الفقرة بعض الشئ - ومن هنا تتضح صورة الذاتية المتضخمة عند الإمام الغزالى، وهو بحق من القلائل الذين تنبهوا إلى اعتلال النفس البشرية بأمراض تخرجها عن طبيعتها، وتباعد بينها وبين فطرتها.

حقيقة الذاتية المتضخمة عند الغزالى:

يقول: (اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق فى النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق، وخلق الكبر مرحب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر، فالأصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به. وبه ينفصل الكبر عن العجب - لان العجب لا يستدعى غير المعجب، يا بت لم يخلق الانسان الا وحده، تصور أن يكون معجبا ولا يتشور ان يكون متكبرا، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا، فإنه قد يستغظم نفسه ولكنه يرى غيره اعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفى أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه احقر لم يتكبر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغى أن يرى بنفسه مرتبة ولغيرة مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره. فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفى الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفع فيه، فيحصل فى قلبه اعتداد وهزة وفرح ويكون الى ما اعتقده وعز فى نفسه بسبب ذلك. فتلك العزة والهزة والركون الى العقيدة هو خلق الكبر،.. فكأن الانسان مهما رأى نفسه بهذه العين - وهو الاستتعظام - كبر وانتفخ وتعزز فاكالبة عبارة عن الحالة الحاصلة فى النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى ايضا عزة وتعظيما.. ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر والباطن هى ثمرات

ويسمى ذلك تكبرا، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره، حقر من دونه وازدراه واقصاه عن نفسه وأبعدها، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته. ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه أن اشتد كبره، فإنه كان أشد من ذلك استنكف عن إستخدامه ولم يجعله اهلا للقيام بين يديه، ولا بخدمة عتبته، فان كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه فى مضايق الطرق وارتفع عليه فى المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه، وان حاج او ناظر انف أن يرد عليه، وان وعظ استنكف من القبول وان وعظ عنف فى النصح، وان رد عليه شيئا من قوله غضب، وان علم لم يرفق بتبمتعلميه واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة وكأنه ينظر الى الحمير استجهالا لهم واستحقارا. فهذا هو الكبر وآفته عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والمعادن والعلماء فضلت عن عوام الخلق وكيف لا اعظم آفته وقد قال رسول الله ﷺ : "لا يدخل الجنه من كان فى قلبه مثقال ذرو من كبر" وانما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين اخلاق المؤمنين كلها، وتلك الاخلاق وهى أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الابواب كلها لان من فيه كبر لا يقدر على أن يجب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شئ من العز ولا يقدر على التواضع وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد، وفيه العز ولا يقدر على كظم العيظ، وفيه العز، ولا ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا معنى للتطويل: فما من خلق ذميم الا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزة،وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه

أقسام المتكبر عليه:

الاول: التكبر على الله تعالى:

وذلك هو افخش انواع الكبر ولا مثار له الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء ومثل فرعون وغيره

الثانى: التكبر على الرسل

: ويأتى من تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع من المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد الحق والتواضع الرسل

الثالث: التكبر على العباد

.: وذلك بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم. والدعوه الى الى الترفع عليهم فيزد ربهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا القسم وان كان دون الأول والثانى فهو عظيم من وجهين أ - عن الكبر والعز والعظمة والغلاء لا يليق الا بالملك القادر. ب - أنه يدعوا الى مخالفة الله تعالى فى أوامره وان المتكبر واذا سمع الحق من غيره استنكف عن قبوله وتشكر لجحده[1].

أسباب التكبر

يرى الإمام الغزالى أن اسباب الاكبر تنحصر فيما يلى:

اسباب دينية: وهى العلم والعمل

واسباب دنيوية: وهى النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار

العلم: وعن العلم يقول: وما تسرع الكبر الى العلماء.. فلا يلبث العالم أن يعزز بعزة العلم ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره الى البهائم.. ويرجع ذلك إلى سببين

الاول: أن يكون اشتغاله بما يمسى علما وليس علما حقيقيا، وانما العلم الحقيقى ما يعرف به الانسان ربه ونفسه، وخطر أمره فى لقاء الله تعالى ظ. وهذا يورث الخشية والتواضع..

(١) المصدر السابق ص ٢٧: ٢٨٣ نقل بتصرف واضافة

فأنا ما ما ورا ذلك من علوم كالطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرح المجاملات، فإذا تجرد الانسان لهاوجتى امتلأ منها امتلأ كبرت ونفاقا وهذه بأن تسمى صناعات اولى من أن تسمى علوما

الثانى: أن يخوض العبد فى العلم وهو خبيث الدخيلة، ردئ النفس، سئ الاخلاص فإذا خاض فى العلم.. صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا، فلم يطب ثمره

ولم يظهر فى الخير أثره.. كالغيث يتنزل من السماء حلوا صافيا، فتشربخ، الاشجار بعروقها فتحوله على قدر طعةمها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم بحفظه الرجال فيتحول على قدر همهم واهوائهم فيزيد المتكبر كبرا والتواضع تواضعا فما اعز على بسيط الارض عالما يستحق أن يقال له عالم ولا يحركه عز العلم وخيلاؤه. فان وجد ذلك فهو صديق زمانه. وهمهات: فأنا يسمح اخر الزمان يمثلهم وكما يغرى العلم تغرى العبادة ايضا وتظهر على سلوك العائد اعراض منها: الترفع فى المجالس، التقدم على الاقران، اظهار الإنكار على من يقصر فى حقه يصعر خده للناس، يعبس وجهه، ويقطب جبينه - كأنه متنزة عن الناس او غضبان عليهم. ولا يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الوجه حتى يعبس،ولا فى الخد حتى يصعر، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ، ولا فى الذيل حتى يضم. انما الزرع فى القلوب. كما قال رسول الله ﷺ " التقووى ها هنا "[1] وأشار إلى الصدر

الاسباب الدنيوية:

التكبر بالحسب والنسب:

فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان ارفع منه عملا وعلما.. وذلك عرق دفين فى النفس لا ينفك عنه نسيب، واه كان صالحا وعاقلا، إلا أنه قد

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة..

لا يترشح منه ذلك (يظهر منه) عند اعتدال الاحوال، فان غلبه غضب أطفأ نور بصيرته وظهر منه ذلك.

التفاخر بالجمال:

وذلك اكثر ما يجرى بين النساء، ويدعو الى التنقص والغيبة وذكر عيوب الناس.

الكبر بالمال:

وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم والتجار فى بضائعهم وبين الدهاقين فى أراضيهم وبين المتجملين فى لبسهم، وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير.

التكبر بالقوة وشدة البطش: ويكون التكبر على أهل الضعف.

التكبر بالاجماع والأنصار: ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة فكل ما هو نعمة ويعتبر كمالا.. أمكن أن يتكبر به.

وبعد حديث الإمام الغزالي عن اسباب التكبر (اى تضخم الذات الإنسانية) يعود فيحدثنا **اسباب التكبر الداخلية فيقول:** اعلم ان الكبر خلق باطنى واما ما يظهر من الخلق والافعال فهو ثمرة ونتيجة وينبغى أن تسمى تكبرا ويبقى اسم الكبر للمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر، واما الكل. الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب فى المتكبر وهو: العجب. وسبب فى المتكبر عليه وهو: الحقد والحسد. وسبب يتعلق بغيرهما وهو: الرياء[1].

ويعقبالإمام الغزالى على هذا الفصل الجيد عن الذاتية المتضخمة بفصل آخر عن الغرور إلا أنه يشتمل على عناصر التكبر ولذلك اكتفينا بما سبق إلا اننا ننصح بمراجعة هذين الفصلين لمن أراد أن يعد دراسة أخرى فى هذا المجال.

(١) المرجع السابق ص ١٩٦١ وما بعدها. نقل بتصرف.

الخاتمة

بعد أن استعرضنا ماجاءفى القرآن الكريم والسنة الشريفة عن الذاتية المتضخمة والمرور على رأى الإمام الغزالى فى تضخم الذات ظهرت عدة نتائج من خلال البحث تتلخص فيما يلى:

١ - أن تضخم الذات من الأمراض النفسية التى يصعب علاجها لأن هذا التضخم يتفاعل مع وجود الإنسان نفسه فى الحياة ورغبته الجامحة فى الخلود

٢ - أن تضخم الذات من الأمور التى تضر بعقيدة الإنسان وبتوجهاته فى الحياة وتخلط عليه الأمور، وتوقظ فى نفسه الغرور، وتجعله عنصر مزدوج التفاعل، فصاحب لذات المتضخمة إيجابى فى تكثيف الأحداث فى الدائرة التى يعيش فيها، سلبى فى خلافته فى الأرض وفى عطائه للحياة

٣ - أن تضخم الذات من الأمور التى لا تكتشف مبكرا لأنها تتفاعل داخل الشخص المصاب بهذا المرض، فى منطقة اللاشعور، وتكثف الكبت والحزن والحرمان، والفشل وتمزجها وتفجرها أفعالا إيجابية عكسية لهذا الشعور المكثف فى اللاشعور، وهذا المرض النفسى يشبه إلى حد كبير مرض السرطان العضوى فهو يتكون فى داخل الجسم من تفاعل المواد السامة والضارة ولا يعلن عن نفسه إلا عندما يستحيل العلاج، وهكذا تتكون وتتبلور الذاتية المتضخمة فى منطقة مظلمة فى اللاشعور ثم تخرج مرة واحدة سلوكا عمليا يرتكز على قناعة نفسية ومزاج غريب.

٤ - أن أصحاب الذات المتضخمة لا يمنطق حياته، ولكنه يستنطقها لصالحه وينطقها بما يريد، وكما تتنوع صور العمى فى العيون، يصاب صاحب الذات المتضخمة بأنواع من العمى العقلى والفكرى وكل عمى يمنع العقل من أداء وظائفه الحيوية والفكرية.

٥ -

تتركز صعوبة علاج مريض الذاتية المتضخمة فى عدم استجابته لحالة الاستبصار التى تعتبر الأساس الأول فى علاج الأمراض النفسية بصفة عامة علاجا نهائيا وناجحا، وعلى سبيل المثال:

فالذى تتضخم ذاته من مرتكز العلم –أى يدعى أنه علام، فى حالة علاجه يتحتم على المعالج النفسى الوصول إلى أن يبصر ذاته ويعلم أن علمه بجانب علوم الآخرين لا يساوى شيئا، وبجانب العلم الحقيقى للأشياء لا يعد علما، وعندما يصل إلى هذه الحالة مع المعالج يبدأ من أول طريق العلاج، ولكن هيهات هيهات أن يعترف صاحب الذاتية المتضخمة بأنه يجهل شيئا فى الحياة، ويستحيل هذا أن يعترف صاحب الذاتية المتضخمة بأنه يجهل شيئا فى الحياة، ويستحيل هذا الاعتراف، ويستحيل معه العلاج، لأن اعتراف صاحب الذات المتضخمة بأى نوع من الضعف ينسف ذاته ويدمرها ولا يعالجها لأنها قامت أساسا على الخيال، وعندما تحاول فصلها عن هلاميتها تميتها لأنها مثل النبات الذى يفصل من جذوره وتبعد عنه أسباب الحياة، ومع هذا يبقى الأمل فى أن يقوم المعالج الخبير فى فصل الذات عن جذوره وتبعد عنه أسباب الحياة، ومع هذا يبقى الأمل فى أن يقوم المعالج الخبير فى فصل الذات عن جذورها على فترات طويلة ويقطعجذرا أو يستبدله بجذر آخر حتى يصل فى النهاية إلى وضع جذور تعويضية تمد الذات بمقومات الحياة النفسية الطبيعية الصحيحة. إلا أن هذا الإحلال للمقومات النفسية فى داخل الذات المتضخمة ليس سهلا، بل تتضاءل أمامه كل أنواع استبدال الأجهزة العضوية التى

تشكل مجموع أجهزة الجسد الإنسانى، فمشكلة العلاج تكمن فى الاستبصار، والاستبصار يعاكس الذاتية المتضخمة فى أساس بنيانها النفس وسر وجودها فى الحياة.

٦ - وعند الإمام الغزالى تعود أسباب تضخم الذات إلى كثرة المال، وقوة الجسد، والتفوق فى العلوم المختلفة، ولعل هذه الأسباب كانت مناسبة لتضخم الذات فى زمانه إلا تفاعل أن تفاعل الأحداث وتراكمها وسرعة حدوثها فى الحياة، وبعد الناس من حياة الدعة والسكينة، والانتقال من الحياة الشعرية التى يمزج فيها الإنسان بين خيال وخيال، إلى الحياة الواقعية، التى فيها الإنسان بين دافع مُعاش، وواقع لا يستطيع تفسيره.

كل هذا أدى إلى إستحداث أسباب كثيرة لتضخم الذات:

أ - **التعويض**: فالإنسان الذى يعيش ظروفا قاسية فى طفولته ولا يجد سبيلا لفهم ما يحدث له يشعر بالقهر والدونية ويترسب هذا الشعور فى اللاشعور ويكمن فترة طويلة حتى يكبر هذا الإنسان ويتبوأ مركزا فى الحياة ويمنحه هذا المركز فرصة للسيطرة على الآخرين، هنا فقط تتحرك نيران الماضى الكامنة فى اللاشعور وتضرم وتتصاعد أفعالا وسلوكيات يصعب تفسيرها أو فهمها إذا ما عرضناه على منهاج السواء النفسى للإنسان.

ب - **وتتعقد ظروف الحياة** ويكثر عدد اليتامى الذين توفى عنهم آباؤهم بسبب الحروب والأحداث، أو بطريقة طبيعية، ولكن المجتمع لم يعد لديه الوقت والرغبة فى تعويض هؤلاء بالحب والحنان بسبب ضعف الإيمان من جهة، وتزاحم الأحداث من جهة أخرى، هؤلاء اليتامى الذين حرموا من الحنان فى طفولتهم سيصبح بعضهم فى المستقبل مصدرا للذاتية المتضخمة ويكون منهم العالم المتكبر، والحاكم المتجبر، والداعية الذى يدعو لنفسه وهو يظن أنه يدعو إلى دين الله سبحانه وتعالى. والمزارع الذى ينشغل بذاته عن زراعته وقضية وطنه الكبرى وكذا الصانع الذى تشغله ذاته عن أهداف أمته العظمى.

والفرق بين الذاتية المتضخمة والذاتية السوية، أن الأولى تتلاشى الأمة بأهدافها فى داخلها، والثانية تذوب فى أمتها وفى أهدافها. فالإنسان الطبيعى يعمل لخير أمته من غير

أن يضع ذاته عنوانا لهذا الخير. والإنسان المريضصاحب الذاتية المتضخمة، يتخيل أن الأمة ما خلقت إلا لخدمته هو وأن يكون سيدا مطاعا عليهما

جـ - **وتتضخم أيضا ذات بعض المصابين** بالعاهات وليس ذلك –كما يتبادر إلى الذهن - بسبب العاهة ولكنه بسبب تجاهل المجتمع لأمال وأحلام صاحب العاهة، ولذلك عندما يجد صاحب العاهة فرصة لإثبات ذاته يثبتها متضخمة من البداية.

د - **ويدخل الفقر الذى يعانيه الإنسان فى طفولته** وكذا الحرمان كسب من أسباب تضخم الذات عند بعض الناس حين تتغير ظروفهم المادية ويصبحون من الأغنياء وأقول عند بعض الناس، لأن أصحاب النفوس السوية حين يفتح الله تعالى لهم أبواب المال يتجهون إلى حمد الله تعالى على عطائه، بالقول والعمل فسيحمدون الله تعالى ذكرا، ويخرجون حق الفقراء من أموالهم شكرا وهؤلاء يتلاشى شعورهم الكامن بالدونية لأنهم بحمد الله تعالى وضعوا أساسا لبنيان ذواتهم على مرتكز الفطرة وفى ضوء الشريعة التى تحدد أهداف الإنسان فى الحياة، وتبشرهم بسعادته فى الآخرة.

هـ - **ويأتى أتضاع الأسرة** ودنو مستواها عاملا من عوامل تضخم الذات عند بعض الأفراد حين يكبرون ويصبح لهم المال والجاه فى الحياة

الذاتية المتضخمة والدعوة:

تفيد دراسة الذاتية المتضخمة ميدان الدعوة الإسلامية فى كثير من الأمور منها ما يلى:

١ - فهم النصوص النفسية فهما عميقا يشارك فى علاج الأمراض الاجتماعية والنفسية وهى فى مرحلة التكوين قبل أن تصبح مراضا.

ويتحتم على الدعاة الوقوف طويلا أما اهتمام القرآن الكريم بالمستضعفين من بنى الإنسان فبالنسبة لليتيم يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (سورة الضحى: ٩).

فاليتيم يحتاج إلى طعام وشراب وكساء، لكن الله هنا يأمرنا برعاية الجانب النفسى عند اليتيم فيأمرنا ألا نكون سببا فى قهره، وليس هذا تصدقا من الناس على اليتيم، بل هو حماية لمستقبلهم ومستقبل أبنائهم حين يشتد عود اليتيم وتقوى ساعداه ويستطيع أن ينكل بالمجتمع الذى يرحم طفولته ونفسيته.

ويجعل القرآن الكريم(دع اليتيم) سببا من أسباب التكذيب بالدين فيقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (سورة الماعون ١، ٢) فى هذه الآية التكذيب بالدين لا يأتى بسبب حرمان اليتيم من المال كما فى سورة النساء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (سورة النساء:١٠). فآية النساء تهتم بالمال، وآية الماعون تهتم بالجانب النفسى لأن القرآن الكريم يعالج مشكلات الإنسان بصورة شاملة.

وبالنسبة لأصحاب العاهات:

يرفع القرآن الكريم الحرج عنهم، فيقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (سورة النور٦١). لأن حرج أصحاب العاهات يسبب إهمالا ما نفسية خطيرة تؤثر على مستقبلهم النفسى

هكذا اهتمت الدعوة الإسلامية منذ البداية بهذه الجوانب التى أهملناها الآن بسبب الخلافات المذهبية والعنتريات الفردية التى تشبه إلى حد بعيد تضخم الذات وفهم النصوص بهذه الطريقة يبرز إنسانية الإسلام، وشموله للحياة

٢ - الاهتمام بالأبحاث النفسية فى الدراسات الدعوية لأن النفس البشرية وهدايتها هما أمل الداعية وهدفه ومجال عمله.

٣ - إهتمام الدعلة بالمؤسسات الاجتماعية التى تخفف من آلام الناس مثل الجمعيات الخيرية الدينية والتى تقوم على الشعور الدينى والإنسانى، وهذا يجعل الدعية

ينتقل من الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية المفيدة التى تخفف آلام الناس وتمسح عنهم الحزن وتضئ حياتهم، وهذه دعوة رسول الله ﷺ إمام الدعاة وسيد الهداة.

إن الدعوة اللفظية التى تعتمد على الأحاديث الموضوعية والقصص الخرافية أماتت فى أمتنا العزيمة وجلبت لها الهزيمة، وأقامت ساترا من الضباب بين الأمة ومستقبلها الكبير.

أ.د / محمد محمد أبو زيد